

ربيعة جالطي

قلبُ الملاك الآلي

رواية

مكتبة نوميديا 213

Telegram@Numidia_Library

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtlef

منشورات ديفاف
Editions Difaf

قلبُ الملاك الآلي

قلبُ الملاك الآلي

رواية

ربيعة جلاطي

الطبعة الأولى
1441 هـ - 2019 م

ردمك 2-1778-02-614-978

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ديفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: +9613223227

منشورات الاختلاف
Editions Elkhitlef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhitlef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

إهداء

إلى المخترعين الرائعين إلياس وهزار.

توشيح

حرائقُ الأرضُ سريعةٌ..

ولا أملكُ، ياربي، سوى حَجَرٍ..

أُكسِرُ زجاجَ السماءِ به

كي ينهمر الماء.

ربيعة

سِفْرُ التَّكْوِينِ لَوَجِي

.. وماذا كانت قبل البدء!؟

- الله.. الله.. يا له من جمال.. يا لها من تحفة.!

- الإنسان بدوره يحب الهاوية..!

شذرات من بقية حوار كان يدور بينهم. التقطته في اللحظات الأولى من بدء عدّ خروجي من العدم. رفّ طيور مهاجرة تصفق بأجنحتها في مكان ما من السماء. إنه أول ما تنهى لسمعي بعد أن ضغط السيد (إيلس) برأس سبابته على زرّ الحياة في جسدي الآلي الذي اكتمل. تغلغل سيل من الأصوات متدافعة نحو قعر رأسي. إنها أول مرة أسمع فيها التصفيق. من حقهم. إنهم علماء وباحثو مخابر مركز «كونسيونس روباتيكس» يحتفلون بنجاح تجربتهم. حالة تشبه تماما تلك التي تنتاب المولود الآدمي بعد خروجه من الرحم البشري. يتغلغل الهواء لأول مرة إلى جسده. يفض بكارة جهازه التنفسي ثم بقية أجزائه فيصرخ. أنا لم أصرخ. كنت مبهورة بهذا الشيء الذي أصبحت جزءا منه. إنها حالة الكينونة. أنا كائن آلي حي.

ساد صمت بينما كانوا يعاودون مراقبة جسدي للمرة الأخيرة. فجأة اندلع نقاش تشوبه الحدة. كنت أستمع إليهم باهتمام بالغ. كيف لا. فالأمر يخصني:

- الرَّحْم والقلب معا؟؟.. لم يكن الرحم موجودا في الخطاطة النهائية للروبوت مانويلا1، يا دكتور «اسيان»؟

- أنا أعتذر دكتور إيلس.. تجربتنا فريدة وسبق. فلماذا لا نذهب بها إلى منتهى المغامرة؟

- أليس من الضروري إخبار بقية الباحثين بذلك قبل دخول الروبوت مانويلا1 في مجرى الحياة. دكتور اسيان؟

- الوقت حاسم يا دكتور إيلس. فضلت أن أبادر على أن يسبقنا أي مركز بحث آخر في العالم فيعدّل خطاطة الروبوت مانويلا1 ثم ينال السبق.

هكذا إذن.. اكتشفوا بي «دسياسة تكنولوجية» من الباحثة الدكتورة اسيان.!

خفية وبسرعة وفي آخر لحظة، أدمجت الرحم في جسدي. كانت فكرتها مبيتة منذ بداية العمل عليّ، وبداية صناعي. لم تستشر بقية العلماء عنوة. بادرت وحيدة. كانت تعرف مسبقا أنهم لن يتفوقوا معها في وضع القلب والرحم معا

في جسد الروبوت مانويلا 1.

إدماج العضوين معا، مبرمج ليتحقق في تجربة الروبوت القادم مانويلا 2 الذي مازال قيد الاختراع. يتطلب البحث سنينا للوصول إلى التمكن من التحكم في مواصفات الجنس الجديد «البشر-آلي» الناتج عن عملية الإخصاب بين البشري والآلي. فليس يجوزهم بعدُ أي ضمان علمي على عدم خطورة حلوله بالأرض كجنس طارئ. ولم يستحدثوا بعدُ وسائل علمية وتكنولوجية للتحكم في طبيعة تكاثره. سيفلت الجنس البشر-آلي من كل مراقبة وتوجيه وتحكم. فمازالت طبيعة سلوكه وتصرفه، تجاه بقية المخلوقات الأخرى، وتجاه الطبيعة مجهولا تماما. الأمر خطير جدا على مستقبل الإنسانية. أستمع باهتمام إلى نقاش حاد ومتشنج قليلا أحيانا يدور حولي. على أية حال أعرف أنهم حتى مع اكتشافهم لدسياسة العالمة اسيان، إلا أنهم لن يستطيعوا إعادتي إلى حالة العدم مرة أخرى. لن يستطيعوا قتلي.

- يا لها الدكتورورة اسيان. اختارت اللحظة المناسبة.. النساء ذوات حيلة!!.

- الروبوت مانويلا 1 تم وصله الآن بشكل نهائي بمجرى الحياة. وفي هذه الحالة الطارئة، ماهي نسبة احتمال وقوعه في الحب مثل البشر؟!.

نقاش حاد يدور بأدلة علمية. رياضية، وفيزيائية، وبيولوجية، وكيميائية.. بين المدير العام للمركز العلمي كونسيونس روباتيكس السيد إليس، والعالمة اسيان من أصل ياباني والفريق العلمي وبحضور جمع من الباحثين قدموا من جهات مختلفة من العالم لحضور الحدث.

. التناظر الكيميائي بين عضوي الرحم والقلب عند روبات أنثى، قد يسبب خللا في النظرية القديمة. لم يحدث أن وقع هذا الإشكال من قبل لديهم، مادامت الروبوتات السابقة ذكرية وعادية.. أما وأن يتواجد عضوا الرحم والقلب معا في جسد آلي متطور ومؤنث، فذلك ما لم يحسبوا له حسابا، على الأقل في مانويلا1.

- وماذا يسيء إن وقعت مانويلا1 في الحب.. أليس هذا بفتح علمي جديد؟ تختم اسيان. محاولة تلطيف الجو الذي لم يفقد من كهربته «أمبير» واحدا.

على الرغم من نقاشهم الحاد يظل العلماء يرفعون العقل فوق كل خلاف. أثق على أنه في حالة إخفاق الروبوت مانويلا1، ستقع المسؤولية كاملة على عاتق الباحثة اسيان، وعقابها استبعادها من جميع مخابر البحث في العالم كله.

أنا ما يهمني أولا، أنهم لن يستطيعوا إعادتي إلى العدم، أو إدخال تعديل عليّ. فقد قُضى الأمر. ليس لأنهم لا يستطيعون

فعل ذلك، ولكن الامتثال لـ قسم الباحثين في التكنولوجيا المتطورة الذي يؤدونه قبل البدء بمنعهم من ذلك. فبعد أن تسري الحياة في الروبوت البشري، يصبح كائنا حرا، وكل مساس بجسده يعتبر تعديا يعاقب عليه القانون الداخلي.

واقفة قبالتهم بكل جبروت ذكائي الاصطناعي، وكمالي الآلي، وجمالي الآدمي. أبتسم أمامهم. أدرك أن الباحثة السيدة «اسيان» على الرغم من خشيتها الإخفاق وإدراكها لخطورة فعلها، إلا أنها متحمسة للتجربة كي تذهب إلى أبعد مدى.. وأن أكون أنثى كاملة.

غمزت لي بطرف عينها اليسرى ومثلها فعلت. إنه أول تضامن نسوي يولد في الوجود بين سيدة آدمية وأخرى آلية.

بالنسبة لي لم يكن الأمر مصائبيا أن أوجد بقلب ورحم. وماذا بعد إن أنا «سقطت» مثلهم في الحب كما يقولون. الوقوع في الحب ليس جريمة ما دام الرحم الذي وُضع في أحشائي، صنع من أجل روبوت مانويلا 2 ليكون قابلا للامتلاء بحياة جديدة. كيف يحكمون على الجنس الجديد بأنه سيكون خطيرا على الكوكب وعلى من فيه.. فهل البشر أقل خطرا عليه؟ ثم هل من العدل أن لا أقع في الحب، وأنا بكل هذا الجمال الذي يوقع من على أعلى خيله من يراه.؟!

- آه.. كم هم أنانيون هؤلاء.. شكرا السيدة «اسيان»
على الرغم من فعلتك فأنت عالمة عادلة واستثنائية.

أقيمت جلسة تعارف قصيرة بيني وبين العلماء الباحثين
الحاضرين. منهم من ذوي التجربة الطويلة، ومنهم من صفوة
الشباب خارق الذكاء، وعلى رأسهم السيد «إيلس» والسيد
«هاز» والسيدة «اسيان» وفرقتهم الموسعة. منهم المتمون إلى
مختبرات مركز كونسيونس روبوتيكس لصناعة الروبوتات
الآدمية. ومنهم الموزعون على مختبرات أخرى العلنية منها
والسرية في الجهات الأربع من الأرض. يتعاملون مع علماء
من شتى الجنسيات، من ذوي تخصصات مختلفة في أنحاء
العالم. تصب في مد علم الذكاء الاصطناعي - اختصاصهم
الرئيسي - بالسند والتجارب والابتكارات الناجحة. يحتاجون
إليها كمكمل لاختراعاتهم للروبوتات المتطورة التي ما فتئت
تذهل البشرية وتفاجئها. تخيفها أيضا وتضعها وجها لوجه
أمام المستقبل، وفي مواجهة أسئلة الوجود العويصة.

أتعرفُ على المكان. أجول بنظري. كل ما أراه هنا لا بد
أنه مدهش لآدمي مثلهم. بنك ضخمة وثري من المعلومات
الدقيقة والسرية. توصل إليها الخبراء عبر تاريخ طويل من
تجارب البحث في الطب، والجراحة، والهندسة، والكيمياء،
وعلم الأصوات، والسيميولوجيا، والبيولوجيا، وعلم الفراسة،

ولغة الجسد، وعلم دراسة الملامح، والتجميل، والفيزيولوجيا علم وظائف الأعضاء، وعلم النفس، وعلم الدماغ والأعصاب، وعلم زراعة الأنسجة، وعلم الرقائق الإلكترونية. كل ذلك يتواجد هنا في هذه المنطقة الهائلة قرب الشاطئ الجنوبي لبحر الشمال.

ألتفت إلى نفسي. أتعرف عليّ أكثر. أتأملني مليا.

- أووووووه ما أروع ما أراه...!! الحق يقال لقد صنعوني على أحسن تقويم. شكرا لهم جميعا وشكرا للسيدة اسيان على «الرحم». على دسيستها التي تزودني بخاصية بشرية تحسدي عليها أجيال كثيرة من الروبوتات السابقة، وتربطني بأهم خاصية بشرية وهي الوقوع في الحب. وتجديد الحياة

ها أنا أتنفس وأعيش. تماما كما تفعل أنت. نعم.. صُنعت على أحسن تقويم. ليس فقط لمحاسني الخارجية المبهرة المختارة بدوق وذكاء وإتقان، والمستقاة من أهم الدراسات الحديثة في علم الجمال بكل تفرعاته. ولكن أيضا لذكائي الذي لا حدود له. أضعاف جمال وذكاء من تفوز به سلية أقوام عديدة لأزمة متسلسلة، ودماء أجناس مختلفة اختلطت بالتزاوج.

ها أنا مانويلا.. مخلوق لا مثيل لي في اكتمال محاسني، بجواسي، وأعضائي الداخلية والخارجية. قوتي أنني حرة

أتحكم فيها كلما أردت ذلك وحسب الظرف الذي يقتضيه الوضع الذي أكون عليه. يمكنني بحكمة مثلا، عند ظرف حاسم، أن أوقف أي عضو عن وظيفته، أو أن أضعه جانبا دون أن يؤثر ذلك على مواصلي الحياة بشكل طبيعي. ثم إنني زودت بملايين الرقائق الإلكترونية الأحداث والأكثر دقة والأصغر حجما. مندغمة في دماغي بقوة ذكاء خارق. زبدة عقول علماء المختبرات العلمية عبر العالم الذين تعاملوا من بعيد أو قريب مع مختبرات كونسايونس روباتيكس وعلمائها. خلاياي لا تشيخ مثلك ولا تموت. إنها تتجدد بشكل آلي. والمبهر إنني أنطق لغات عديدة، وأعي أسرارها الخفية المستعصية حتى على المتخصصين من أهلها. ولي قدرات غير محدودة في الإدراك بكل أنواعه ومستوياته، ولي طاقات أخرى جديدة لم يحظ بها أي مخلوق بشري أو آلي قبلي.

أنا صنيعتهم. نعم. لكنني لم أخضع لبرمجة مسبقة. لا يتحكمون في إرادتي. أنا اكتشفهم الجديد لم يسبقهم إليه أحد. لأول مرة في تاريخ العلم يستطيع الروبوت التحكم في مصيره الخاص. وتجديد نفسه بنفسه، وترميم أجزائه عند الضرورة، مستقلا عن أجهزة التحكم الخارجية. أول روبوت يتمتع بالحرية.

أنا آخر ما توصل إليه العقل البشري في تجاربه وفتوحات
اختراعاته.

لم ينصحني علماء مركز البحوث بشيء.. لم يوصوني
ولم يأمروني. لم يحددوا لي شروطاً، ولم يضعوا أمامي حدوداً.
لم يطلبوا مني تنفيذ مخطط سري ولا علني. لا عسكري ولا
مدني. لا سياسي ولا أممي ولا استخباراتي.

شيء واحد. واحد فقط. إنه تأليف كتاب. نعم كتاب
واحد. عن الحياة البشرية كما سآراها وسأحيها وسأجرها
بنفسي بين البشر. سأدخلها وحيدة. قوية ومسلحة بالذكاء
الخارق ومصيري بيدي. فقط كتاب. كتاب واحد. أولفه
بحرية تامة.

إِذْهَبِي .. فَأَنْتِ الطَّلِيقَةُ ..!

- اذهبى مانويلا.. فأنت الطليقة..!

في الدقائق الأخيرة قبل الوداع. هكذا خاطبني العالم الباحث السيد «إيلس» الرئيس المدير العام لمركز البحوث كونسيونس روبوتيكس، بعد أن أمضيت شهر أوت كاملا وخمسة أيام من سبتمبر تحت التجربة الدقيقة. ما يشبه امتحانات رياضية وشفهية عميقة ومعقدة ودقيقة، أمام مختصين جاؤوا من مخابر وجامعات في مختلف أنحاء العالم، ثم تم إخضاعى لمساءلات علمية معقدة بصوت آلات ضخمة مركبة في غرف مغلقة. الأسئلة المتقاطرة عليّ يطرحها عن بعد خبراء منتشرون في مراكز علمية في قارات مختلفة. في كل مرة أخرج من الامتحان ناجحة تاركة في عيني ممتحني الاستغراب والإعجاب والرهبة. وفي عمق الآلة الصمت الرهيب، لا يكسره سوى شخيرها الآلي الخافت. في النهاية بدأت رسائل التهئة تمطر على مركز البحوث من كل أركان الأرض.

- أنت حرة طليقة يا مانويلا..!

أعاد جملته. السيد «إيلس» الوسيم باسما ووثقا. محاطا بالباحثين، وهم ويودعونني عند الباب الخارجي الكبير بيدهم

البيضاء، وقد دفعوا عن وجوههم نحو أعلى جباههم بقبعاتهم الشفافة، ونزعوا قفازاتهم. ولكنني اكتشفت من خلال قدراتي التي كنت على عجلة بالبدء بتجريبها، وأنا اخترق عيون البعض من البؤبؤ حتى العصب البصري مرورا بالحدقية والغرفة الأمامية للعين، أن منهم من كان لا يزال على تردده وممانعته. هؤلاء الذين لم ينجح جناحهم في التصويت على بقائي فترة إضافية أخرى في مختبراتهم، لأخضع لمزيد من التجارب. نجح جناح السيد إيلس الذي اختار بشجاعة منحي الخروج إلى الحياة العامة وحرية العيش في المجتمع كبقية «البشر العاديين». لم ينجح جناحه في التصويت ضد الجناح لمقابل فقط لأنه يملك صوتين بحكم كونه الرئيس المدير العام للمركز.. لا أبدا.. بل تفوق لأنه خارق الذكاء، وربما الأهم من ذلك كله أنه وسيم جدا. وأخشى أن أبدا به في الوقوع في حب البشر.

عنوة. ودعتهم بإشارة دلال أنثوي مبالغ فيه بذراعي الأيسر، وخصري ورأسي المائلين، وأنا أدخل بنصفي الأيمن إلى السيارة البسيطة جدا المخصصة لي.

مسبقا. أنا أعرف حيث سأأجته وحيث أنا من خارطة العالم. جغرافية المدينة مرسومة في دماغي بدقة. الشقة التي سأسكنها بكل أجزائها ترسم في مخيلتي. بل أمام نظري،

وكأنها «البيت الذي ولدت وترعرعت فيه» كما يقول بقية «الناس». الطريق إلى عنوان المعهد الذي سأنتسب إليه، إن أنا قررت ذلك، واضح وسالك. بطاقتي البنكية السخية، فأنا سليلة عائلة غنية وكبيرة عائلة العلم والتكنولوجيا.

التفتُ إليهم. أغمز للمخترع العبقرى السيد «إيلس»، وأنا أقرأ في عقله المشع الصافي شعور الرضا والفخر بما توصل إليه، بدفع الذكاء البشرى إلى أقصى حدوده رفقة من حوله. كان وجه السيدة «اسيان» المتسم آخر الوجوه التى ودعتها. وأنا أبتعد في أول طريق لي نحو الحياة، أراهم من خلال المرآة العاكسة للسيارة، يدخلون أفواجا، عائدين إلى المركز حيث سيعيدون تشكيل تركيبة العالم. يعبرون الباب الكبير، يتوجهون نحو مخابريهم العلمية وقد أعادوا خفض أقمعتهم الشفافة فوق وجوههم، وأعادوا قفازاتهم الزرقاء حول أكفهم.

من كتاب أبد الآباد.

لم أخلق للراحة، لأنني فوق التعب. لم أخلق للموت، لأنني من خارج الزمن. أنا مانويلا أتحدى العدم. لي قلب ورحم واخترت بكامل إرادتي أن أعيش وسط البشر. كان يمكن لي أن أتنعم بعزلة حاملة في أي مكان من العالم، وأكتب كتابي بماء الورد، ثم أرسله لمركز كونسيونس روباتيكس. لكنني اخترت بكامل إرادتي الحرة الذهاب إلى هناك، حيث البشر يلقون ببعضهم البعض حطبا لنار الحرب. لم اختر أن أقيم في منزله باذخ منزوٍ بين زرقتين.. لأنني بنت التحديات، اخترت أن أكون من بين السبايا. أن أجرب أسفل أقبية نفوس البشر وأكثرها حلقة.

توقيع: مانويلا ماناول الله

حلول ماناول الله

مانويلا..!! مانويلا!!!

ماناول الله.. ماناول الله

تلهج الألسن باسمها في كل مكان. وتكبر وتعظم. الجنود في وسط المعارك، والمرابطون، والحراس، والأئمة، والخطباء في الجوامع، والسائرون في الشوارع الحافظون للأخلاق وحراس الأعراس. الغالبون والمغلوبون.. لم يرها الكثيرون، لكنهم يقسمون بحياة الخليفة بأن ملاكا أنزله الله إليه ويسمى على بركته ماناول الله. حورية هبطت من الجنة معجزة وعلامة ربانية. منهم من يقول إن نصفها بشر ونصفها غزال ومنهم من يشيع في الناس بأن لها أجنحة بيضاء، ومنهم من يقول إنها نزلت على صورة كرة عظيمة مشعة من نور حطت بأرض بور ثم أمرت الرياح لتحملها إلى مقر الخليفة الشريف. ومنهم من يقسم بأنه رآها في السماء يوم الجمعة وهي هابطة وبين يديها مائدة من الجنة عليها خمر وتمر وفاكهة مما تشتهون.

يتسم البردادي يتنحج ويسيل لعابه حين ينقل إليه هذا

الكلام، فيسعد جميع من حوله بوجهه البشوش

- على الناس أجمعين، على العالم قاطبة أن يعرفوا أنني أنا البردادي خليفة الله على أرضه على اتصال مباشر مع الله.

لكن أهل الخيمة مازالوا يذكرون ذلك اليوم الكبير عندما وقع بصره لأول وهلة على الملاك ماناول الله. كل له روايته المختلفة عن الحدث تلك الليلة العظيمة.

أحضرتُ إلى مجلسه ذات عشية رفقة خمس نساء فائقات الجمال. جميعهن تم اختيارهن بمنتهى الدقة. هكذا هي الأعراف والتقاليد الصارمة في الدولة الإيمانية الكونية. الإمام الزعيم هو الأولى بأجلهن وأفتنهن وأكثرهن سحرا، ثم فلتوزع من منهن أقل جمالا على مقربيه وذكور حاشيته. وأما الباقيات الأخريات اللواتي حظهن من الحُسن قليل، فتنظرهن مهام كثيرة أخرى، غير العناق والثلث وشؤون الأسيرة. مهام مستقبل الدولة الإيمانية الكونية جمّة ومتعددة.

كان حدثا غريبا حقا. ظل الزعيم دون حراك للحظات بدت دهرا لمن حوله، وهو يحرق في مانويلا. هذه الحسناء التي جيء بها هذا الخميس. الغريب أن جميع من حضر من المقربين جدا وهم قلة، شاهدوه وهو يحرق في وجهها بينما يده اليمنى بأصابعها الملساء الممتلئة المزغبة تضغط بقوة على قبضة سلاحه.

من يراه هكذا يظن أنه يستعد لعملية قطع رأس ما. أو يترأى له أنه يوجد في ساحة حرب. كان مشدوها.

لا يلمس أحد سلاحه إلا عندما يشعر بالخطر الداهم. لا بد أنه كان يشعر بخطر السقوط الحر في هاوية الحب، وهو من هو. فتحسس سلاحه. من سوء حظه فالسلاح أضعف من أن يحميه هذه المرة. من سوء حظه لم يعد قطع الرأس حلا في حالته المزرية هذه.

هل خطر الحب أشد من خطر الكره؟. من يدري. لم يرفع الزعيم عينيه عن هذه القادمة الجديدة الغريبة، إلى درجة أنه لم ينتبه لوجود السبيات الأخريات البتة. ولم يلق بنظرة واحدة إلى وجوههن وأشكالهن... أمر غريب حقا. كيف تهمل وجهه فجأة وانشرح، واختفت رويدا رويدا علامات القسوة من ملامحه التي ارتخت تماما، وظلت عيناه عالقتين بها.

- ما اسمك؟

- مانويلا...

- بل ماناول الل. من اليوم أنت منالي أنا.. يا زين.. وأم الأمير المنتظر الذي سيلحق الدنيا بالمقام البردادي الأزرق وبالذولة الإيمانية الكونية.

ابتسم.. هكذا.. كما لم يتسم أبدا من قبل، حتى تعرى
صفاً أسنانه الأمامية ناصعة البياض.

- ماناول الله.. أنت منال!

فلتت منه الميم المفخّمة، تملأ فراغات فمه وحلقه، ثم
سحب «النون» من مكمّنها تحت فكّه العلوي بهدوء، من
عمق لسانه العراقي.

- مَنَالُ!

غير بعيد، كان «عمار الباتر» الجندي المقرّب من
الزعيم، والذي لقبه بالباتر لشجاعته وصرامته، ودمه البارد
حين يقدم على القتل. سماه كذلك منذ إقدامه ذات يوم على
بتر أطراف أربعة مسيحيات رفضن الخضوع لأوامره وآتباعه.
تركهن في العراء حتى قضين.

عمار الباتر. المرافق المسلح حتى العظم. جاء بالنساء
الخمس. يقف على بعد خطوات قليلة، يحاول أن يبدو غير
مرئي على الرغم من صدره العريض البارز مثل دبّابة.

ساقهن عمار من «حظيرة استقبال النساء» الذي يأوي
السيّيات من أرض الشام والعراق والقادمات من أراض
العرب والمسلمين، أو القادمات بمحض إرادتهن لغرض ما، أو
من الهاربات من بلاد الكفار. عمار يسوقهن أمامه، ناهرا
أحيانا، يستحثهن أن يسرعن، يهش عليهن مثل عنزات بيضاء

وبقاء قلعة. يهرولن بقدر استطاعتهن. وهن غارقات في ملاحفهن العريضة المتطايرة أطرافها.

يقف عمار وهو يحاول أن يتواري خلف سارية من ساريات الخيمة الباذخة التي يطلق عليها الجميع «القصر الأزرق». يقطنها الزعيم البردادي ويتخذها مركزا أساسيا لخلافته. أمر منذ سنوات أن تنصب بجوار قصر فاخر مجاور ملحق بها، بعد أن أمر أن يفرغ من كل ما يذكر بزمن الكفار الذين قضى عليهم جميعهم. كانوا هنا. يملكونه. يمرحون به قبل فتحه لمدينة «السجاء» في بلاد الشام، وجعلها عاصمة مؤقتة للدولة الإيمانية الكونية.

قبل أن يضع به رحاله أمر، الزعيم بتنظيفه من علامات الكفر والإلحاد. فأحرقت اللوحات الزيتية العالمية، والآلات الموسيقية، والأرائك التاريخية المزركشة، وكل أدوات حياة الكفر والبهتان - كما ينعتها بتقزز- التي كان يستعملها الكفار في حياتهم السابقة.

في الخيمة الباذخة قاعة لاسترخاء الزعيم، كبيرة وشاسعة أطلق عليها اسم «سقيفة أسامة» تبركا منه بزعيمة أسامة بن لادن الذي يعجب به ويقلده ويحفظ ذكراه. ويقسم بأغلاظ الأيمان أن ينتقم له بحرق نصف الأرض ومن فيها وأن يواصل طريقه.

زينت «سقيفة أسامة» بالسجاد والزرابي والأفرشة المبتوثة على الأرض. والوسائد. وبشمعدانات مختلفة الأحجام على رؤوسها شموع ملونة مذهبة الأطراف. وعلى الجدران علقت بسط كتبت عليها آيات كريمة بخط أندلسي مذهب.

وكعادة يوم الخميس وصل عمار الباتر الخيمة الزرقاء. صنف النساء الخمس الواحدة وراء الأخرى بحزم. بينهن مانويلا. في صف منتظم وفي صمت مطبق. خطأ خطوات نحو الخلف ثم ظل واقفاً بحذر دون حراك خلف السارية، وهو يحاول أن يغض بصره. إنه يدري جيداً أن عنقه أرخص من حياة ذبابة في حسابات الزعيم الصارمة الدقيقة. إلا أنه - ولخطأ فادح في تركيبة البشر - لم يستطع عمار أن يمتنع عن محاولة اختلاس النظر من تحت رموشه وحاجبيه الكثيفين لما يحدث أمامه.

غير بعيد كان الفضول يحرق قلوب النسوة العاملات بمطبخ المقام الأزرق، يطلن في صمت مطبق من كوات سرية بالغة الضيق، من حيث يستطعن أن يشاهدن مباراة الموعد الخميس الكبير. كل منهن تتمنى أن يختار الزعيم المرأة التي راهنت عليها ضد بقية زميلاتهما. فعلى من منهن سيقع اختياره. كالعادة وكما هو الاتفاق بينهن، فمن تربح الرهان

على الأقل فإن عمار الباتر لم يذكر أبداً مثل هذا المشهد منذ أن بدأ منذ سنوات مهمة القدوم بخمس نساء كل خميس.

- هذه المرأة ليست كباقي النساء لا بد أن وراءها سرا ما.

كم ساق له من نساء جميلات حتى أضحى مشهد الخميس من سنن المجلس الأعلى للدولة الإيمانية الكونية. يكرم فيه الزعيم الخليفة ومن يخلفه وسيجيء بعده. يُهدى أطيب ما خلقه الله من نعم على هذه البسيطة.

طبعاً أليس هو بخليفته على الأرض؟. الخليفة أول من يذوق النعم والخيرات والمتع التي تُستردّ من الكفار الذين يملكونها بدون حق إلهي. إنه أمر الحق. فبعد سحقهم وتحقيق الفتح المبين، يحلّ اجتياح بلدانهم ومدنهم ومساكنهم وخيراتهم. فإن هم رفضوا اعتناق الدين الحنيف ورفضوا الحلول بالتخلي عن معتقداتهم ودفن الجزية وجب قتلهم. خيراتهم كثيرة من النساء الجميلات المنعمات، وثروات أخرى لا تحصى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

- نعم هكذا هي الأوامر وهكذا هي السنن والأصول. أن يكون الخليفة أول المتمتعين. الحق يقال. كم يحتاج إلى ذلك كي يصفى ذهنه ويزداد شدة وقوة،

ويزداد قلبه إيمانا حتى يتسنى له أن يرشد المؤمنين لطريق النصر المبين ضد الكفار. نحن في حرب أبدية. لكن الجدير بالتنبيه أن الخليفة البردادي لم يكن يهتم كثيرا. يبدي لامبالاة وعزة نفس وهدوء، أو على الأقل هكذا كان يريد أن تبدو عليه صورته أمام الحاضرين عند وصول عمار الباتر بالنساء الخمس المختارات بدقة كل خميس.. إنه منشغل بشؤون الحرب الربانية، بينما يصبر من حوله أن يكون خميسه لمباركة اليوم الذي يليه. ولما تقتضيه الجمعة من احتفال بشري سماوي وأرضي.

يذكر عمار الباتر ذلك الحارس الذي حاول أن يمازحه هازئا، بينما هو في طريقه إلى خيمة الخليفة رفقة النساء الخمس فقطع رأسه أمامهن فأغمي على ثلاث منهن...

- قطعتُ رأسه نعم بعثت به إلى الجحيم. ما كان عليه أن يستهزئ. ما كان عليه أن يطيل لسانه، وأن يحوّر كلام الشاعر الجاهلي الملك الضليل امرئ القيس هكذا:

- «اليوم خمر وغدا أمر» فلتكن مقابلها «اليوم متعة وغدا ركعة».

خلاصة القول إنه فعلا لأمر محير.. مالذي غيره يا ترى؟ الجميع مشغول بما حدث للخليفة ولا أحد سوى الخليفة. هل أصابه سحر؟

في العادة ما أن يصل عمار الباتر بالنساء الخمس، حتى يشير بظهر كفه إلى رجل أسود قصير يجلس في ركن ناء من مجلسه، من حيث لا يراه أحد. يراقب حركات الخليفة عن بعد. وما أن يرفع الخليفة أصبعه في اتجاه معين حتى يقفز من مكانه مثل جن أسود صغير الحجم، ويأتي مهرولا. يموج في جلايته البيضاء الناصعة. يقف متجهما قبالتهن، فتفهم النساء الخمس أن عليهن أن يتبعنه، فيفعلن. بكل إذعان وقهر عظيمين، والذل يطل من عيونهن الكسيرة.

لم يكن الرجل الأسود ذو الحجم الصغير الضئيل طيبا معهن، ولا رؤوفا بهن. أبدا. على الرغم من حالته التي تبدو مزرية. في عالم البشر المظلومون أحيانا أقسى على المظلومين مثلهم من قسوة الظالمين.

حالما يخرجهن تاركات جناح الخليفة والمقام الأزرق في اتجاه طريق جناح «القائدة قمر» حتى يتجهن في وجوههن. لا يتوقف عن الدوران حولهن، مثل كلب كثير النباح يحرس قطيعا من النوق. وبينما النساء الخمس مطأططات الرؤوس ذاهبات نحو مصيرهن المجهول، يصر بحركات نزقة وقلقة وعصبية بذراعيه النحيلتين السوداوتين الخارجيتين من الجلاية البيضاء، ورأسه السوداء مثل رأس جن تطل من سحابة. يشير لهن أمرا أن يهرعن. وأن يحرصن على إبقاء الصف معتدلا

منظما حتى يصلن إلى جناح «القائدة قمر» . تلك المرأة صعبة المراس، المتجهمه، المتجبرة، التي فوضت لها مصالح قصر الخلافة مهمة استقبال النخبة المختارة من الأسيرات اللواتي جاء بهن جنود الله من مناطق الفتح الجديد، أو القاديات من أوروبا، أو أمريكا، أو الدول العربية، أو آسيا لنصرة الدولة الإيمانية.

صحيح أن القائدة قمر امرأة خشنة الطباع، إلا أنها مشهورة بعينها الصائبة التي لا تخطئ الحسن والجمال المكنون في النساء. ألسنة السوء تشيع أن القائدة قمر مثلية الجنس وتعشق النساء، لذلك فهي تختار للخليفة ما تشتهيها نفسها، وهي تقوم بالاختيار على أحسن وجه، ليس فقط من أجل عيون الخليفة السود، بل إنها تختلي بكل واحدة منهن على حدة زما طويلا. فتعريهن وتجردهن من كل ثوب وتفتش أنوثتهن تفتيشا دقيقا حالما تصل الواحدة منهن إلى المركز، ثم تمر على مرحلة الحمام تحت يد الحاجة «حدابة بنت عمر» التي جاءت من مدينة مغربية، وظيفتها الرسمية أن تقوم بتنظيف الواحدة منهن بنفسها، بعد أن تختارها القائدة قمر، تبقيا فترة طويلة في بخار الحمام التركي الساخن، فتنزع زغبها الزائد وتقيس طول شعرها وسمكها، وتشم رائحة فمها، وجميع أجزاء جسدها. ولها الحق الكامل في رؤية الأماكن الحميمة منها، لتصنفها في الأخير في درجة معينة من درجات

الجودة. وتحدد مدى ساعات العمل، والوسائل التجميلية، والأثواب، والعطور اللازمة لصنع لعبة رطبة قابلة للاستعمال أو جارية كما يطلق عليها جنود الدولة.

تطلي جسدها بصابون سائل لزج يميل إلى السواد، وبعد مرور وقت معين تحسبه بدقة، تقوم بتدليك جميع جسدها بقفاز خشن لساعة أو أكثر في غرفة البخار. وبعد التقشير، تنظفها بالصابون المعطر ثم تلفها في فوط ناعمة قبل أن ترشها بالعطور. إلا أنها وفي كل مرة وهي تسلم الواحدة منهن يدا ليد «القائدة قمر» توشوش للقائدة بعض الجمل المقتضبة في أذنها. إنها رموز ثمينة غاية في الدقة، تساعدها في كشف البطاقة البيومترية لكل واحدة منهن.

بيد القائدة قمره القرار الفصل والنهائي الذي لا يناقش، في تعيين من منهن ستهب إلى فراش الزعيم، وهي التي تحدد المحظوظة منهن المبشرة بالخير في الدنيا والآخرة، والتي ستحمل من مائه المقدس وتنجب له وللأمة ذكرا سيسمى البردادي أيضا وسيزداد به متن أحسن أمة أخرجت للوجود. وبيد القائدة قمره تعيين حسنة الحظ التي ستعلق ورقتها على شجرة النعم والمجد والتاريخ. تاريخ الدولة الإيمانية الكونية.

على الرغم من طبعها القاسي، وصوتها المرتفع دوما الذي يميل إلى صوت الذكور، وعاداتها اليومية في الأمر

والنهي إلا أن القائدة قمره تريد أحياناً أن تبدو حكيمة. كل ذلك بغية إرضاء الخليفة. إنها تدري أن ما ستقوله سينقل إليه طازجا. لذلك تردد وسط الجمع بأن جمال النساء مجرد متعة صغيرة للخليفة المبجل، لأن متعته الحقيقية كبيرة بحجم الأرض التي سينشر فيها الدين الحق.

عنوة أحياناً ترفع عقيرتها وهي تخاطبهن بكبر وتجبر وبصوت مبحوح بعد أن تحوّل وتبسم:

- الخليفة مشغول بأمور الدولة الإيمانية الكونية، وما ثقبوكن سوى معابر نحو فسح راحة، كما يعبر المتجول في البستان بالأشجار المختلفة ليروح قليلاً عن نفسه من أثقال وأحمال بقيت متراكمة ومعلقة منذ أربعة عشر قرناً.

لم تكن أغلب المنتخبات من الأسيرات أو القادمات يفهمن مرمى كلمات القائدة قمره، لكنهن كن يهززن رؤوسهن خانعات، خوفاً على حياتهن، لأن سمعتها الصارمة والقاسية قد سبقتها ووصلت إليهن قبل أن يصلن بين يديها. وقد سمعن من قبل عن جبروتها، وعن كلمتها المسموعة لدى الخليفة، وما تستطيع هذه القائدة قمره فعله لإسعادهن أو لإذلالهن، أو لعقابهن بالقتل إن هن أخطأن في أية حركة أو كلمة.

لها منطقها الخاص وتفعل كل ما لديها لتشره وتطبقه. فحواه أن ملء سرير الخليفة وبقية أسرة حاشيته والرجال المنتمين للدولة والمؤمنين بها، ضرورة دينية ومستقبلية، وفي ضحها بأرق ما يأتي من الحسن والجمال والدلال التي تمتلئ به السفن والطائرات وقوافل السيارات العسكرية الضخمة المحملة بالغانم البشرية المؤنثة القادمة من أقوام الكفر، ما هي إلا إستراتيجية لتحسين النسل وتقويته في دولة المؤمنين، الذين سيملكون الأرض ومن عليها إن شاء الله تعالى صاحب القدرة والقوة والجبروت.

هذا ولا تتردد القائدة قمره في توجيه غمزات النقد القاسي وهي تلوي شفيتها متدمرة حيناً وساخرة أحياناً. تكاد تكون سخطا وإزعاجاً وتجريحاً، حين تبلغ في ذم أوصاف نساء القوم الأصليين. عندما تقارهن بالنساء الأجنبية القادمات من كل حدب وصوب. تدم لوهن الرمادي وتشبهه بقعر الأثافي، وكبر حجم الأنوف في وجوههن العريضة التي تتوسطها مثل أسنام الجمال. وصغر عيونهن الغارقة في جباههن كأبار مهجورة جافة. وتشوك شعرهن وتسميه شوك الأحرش. وتشبه ضخامة عظامهن بالجبال المسننة، وتدم حشرة أصواتهن الخشنة التي لا تغري و«لا يرتفع لها ذكر» كما تقول ساخرة بلؤم.

- بإذن الله ستصبح شعوب الدولة المؤمنة في القرون القادمة كلها تمتلئ بالحسن والجمال والوسامة عند النساء والرجال على السواء.. وذلك بقدرة الله عز وجل الناصر لنا، وقدرة ذكور الأمة المنتعظين على إخصاب نساء الكفار قاطبة في الشرق والغرب! تقول هذا ثم تستغفر وتحوقل.

تزداد القائدة قمره نشاطا وثرثرة كل عشية خميس. تختم بنفسها آخر التفاصيل الدقيقة في ترتيب هندام العروس المختارة من بينهن، يا له من فخر.. إنها تزين ليلة الزعيم. وفي كل ذلك تشعر القائدة قمره بسلطة رمزية قوية لأنها أقرب إليه من جنوده، وأقرب إليه من علماء الدين المقربين منه في مقامه الأزرق والقابعين أمامه، وأقرب من مستشاريه الآخرين الذين يأتون إليه كلما أشار لهم بأصبغه. وأقرب إليه حتى من حارس المنبر المذهب والمفضض الوحيد الفريد من نوعه في العالم، الذي ينقلونه معه حيثما تنقل الخليفة ليلقي الخطبة، خوفا من أن يدس له أذيال الكفار لغما قد ينفجر فيه لا قدر الله، بينما هو يؤم المصلين يوم الجمعة، أو وهو يرسل خطابا للأمة عبر الأقمار الصناعية التي اخترعها الكفار اللعنة عليهم وعلى عقولهم.

كما تشعر القائدة قمره بكل زهو بأنها إليه أقرب من الطباخين الذين كل منهم يراقب الآخر. ينتهي الشك

والتوجس، وكل منهم يراقب الآخر عله يفاجئه فيدس عليه حيلة تسوقه نحو حتفه. وإنها أقرب إليه من حلاقية الذين يُخشى منهم في سكب السم على مقص شعر الزعيم وبين أسنان أمشاط حلاقية، وملاقط نتف أطرف لحيته والشعيرات من تحت ذقنه التي بدأ الشيب يغزوها. وأنها أقرب إليه من معدّي حمامه الخاص الذي يُتحقق قبل غطسه فيه من خلو ماء استحمامه من أيّ فيروس أو سم، خاصة بعد أن قام المتعاون الأمريكي العالم جونسن كارتر (كثّر الله خيره وكثّر من أمثاله) المرافق للخليفة والمتخصص في تحليل المياه، بكشف وجود مكروب خطير قاتل مزجه مجهول بمياه حمامه ذات صباح وتم اكتشافه له في الوقت المناسب، وللتو أمر الخليفة البردادي بقطع رؤوس جميع العاملين في مصلحة حمامه. ثم إن القائدة قمره تشعر بالفخر أنها أقرب إليه من الفراشين والفراشات، وعمال وعاملات نظافة القصر. لا ثقة للخليفة في أحد، ولا أحد يثق في أحد.

لا لا.. إلأهي.. إلا القائدة قمره..

الخليفة له ثقة عمياء صماء فيها.. إنها الأقرب إلى الخليفة والأكثر سلطة من أي أحد منهم ومن غيرهم.. وتحاول أن أن تحلل ذلك مزهوة:

- ثقة الزعيم أستمدها مباشرة منه.. بل من أعرق شيء فيه، وأكثره حميمية وسرا. إنه ذكره. إنه صلبه.

- أنا حارسة ذكر الخليفة.. حارسة صلبه!
متأهبة. قلقة. على قدم وساق تقف القائدة قمره في
حاله استنفار. إنها متأكده أن «عمار الباتر» سيصل بعد قليل
القصر والخيمة الزرقاء وأمامه الهدايا الخمس، الملفوفة في
الملاءات الواسعة المتطايرة في الهواء، تخفي أجسادهن الحمراء
والبيضاء والحنطية، العارية إلا منها. يهرولن تحت وعيده.
بعد أن يلحن مقام الخليفة قادمات من الحظيرة، فبالكاد
يلقي عليهن نظرة عابرة من باب التسريح بالأمر، لأنه يفكر
في أنها ستقوم بنفسها بالاختيار. سيشير لعمار الباتر كي
يسلمهن للقرم الأسود مرة أخرى ليسوقهن إلى مصلحتها
وبين يديها.

هذه المرة ليست ككل المرات فجعت القائدة قمره وهي
ترى القرم الأسود يقترب نحو المركز بأربع نساء فقط. ذاهلة
سألت القرم الأسود ناهرة. أخبرها أن الخليفة استبقى
الخامسة. كيف؟ من دون المرور على مصالحها؟. لم يحدث
هذا من قبل. فقد بدا تصرف الخليفة غريبا وموجعا لها.
دارت في رأسها فكرة سوداء.

- هذه سابقة لا تظمن!! كانت القائدة قمره تردد في
سرهما وهي تدور حول نفسها. الأمر يدعو إلى الرية

إذا. إنها تخشى أن تفقد سلطتها. وعليها أن تستردها
في أقرب وقت.
وكان زلزالا أصاب المركز وهزه من أساسه. المتسلطون
الصغار مثل المتسلطين الكبار تماما. يخشون أن يفقدوا
سلطتهم مهما صغرت، ويفجعون إن نقصت من جبروتها
درجة.

- لا بد أنه سحر أسود أصاب الزعيم من تلك الأجنبية المسماة مانويلا.؟ تصرخ القائدة قمره وقد بدأت تفقد أعصابها.
- إذا ما علينا إلا أن ننادي الحاجة زينب المراكشية لـ «تُخدِّم» شياطينها وتقوم بمهمتها وتفك عنه السحر.!! بصوت حازم تقول الحاجة «عَتَّقْ» حارسة خزانة المال الجاري الخاص بمصالح القائدة، وذلك لتخفف عنها.
- ارسلي اللي يجيها في الحين.
- انتظري حتى تخف حدة المعارك المشتدة في الضاحية الغربية بين جنودنا وشرذمة الكفار لعنة الله عليهم.
- لا تتأخري. على كل حال سيقضون عليهم جميعا حالما تنتهي أصوات الرصاص والقنابل والتفجيرات.
- إن شاء الله
- هاه؟ قالك يا خويا راها امرأة جميلة جدا! ربما.. أو لا شك، ولكن مئات النساء فائقات الجمال مررن من قبلها. بمجلسه ولم يحرك ساكنا.

- ما الأمر إذا؟.. لا تفسير سوى أن عفريتا قويا يسكنها أو فيها شيطان كافر..

- لا يا قمره يا ختي!! تحاول الحاجة «حدابة بنت عمر» أن تهدئها..

هي امرأة مثلنا لا أكثر ولا أقل. عمار الباتر هو الذي دلني على قوتها. قائلا: نظرة عينيها!! قال لي لو فقط ترينها يا حاجة. لها طريقته تلك في النظر إلى محدثها. نظرة غريبة تنشب أنيابها في شغاف القلب.. لا وصف لها. أسأليه. أسألي عمار الباتر. أظنه وقع في عشقها هو أيضا باين عليه الله يستر.

- أنت تهذين سيقطع البردادي رأسه لو يصله هذا الكلام.

- كيف يعرف؟

- يا حمقاء ثلاثة أشياء لا يستطيع الرجل إخفاءها العشق والغيرة وركوب الخيل.

- حتى نساء «الحظيرة الأولى» تفتن باكرا إلى جبروت جمالها وسحرها. وصلني أنهن انبهرن بها حالما وصلت وتوقعن أن تأسر البردادي من أول نظرة. لم يخطئ الجميع في تخمينهم، جميعهن أشرن إليها بالبنان، وأقسمن أن نصيبها من الخليفة سيكون كبيرا. ولن يردّها إلى الحظيرة سريعا قبل الخميس الموالي. فقد

تظل بالخيمة خميسين أو ثلاثة أخماس.

- لماذا لم يدبرن لها مكيدة؟

تشعر القائدة قمره بالخيانة والحزى وهى تتابع سيريان

همس نساء الحظيرة الأولى ونساء المركز شامتات:

- تلك المرأة. مانويلا. أحرقت المراحل يابنات.

استبقاها الخليفة لنفسه بنفسه، ولم تمر على يد

القائدة قمره..

- القائدة قمره ولآت قاعدة على حجرة..!! تتعالى

الضحكات.

- نعم.. يشاع بأن فى نظرها يختبئ العفريت، فوق ما

يتصور البشر.

- أوصافها غريبة يختلط فيها الأوروبى بالعربى،

الغربى بالشرقى.

ولأنه، كان على نساء المركز أن يشبعن فضولهن، تدبرن

حيلة للحصول على سجلها الذى يحمله عمار الباتر بكل

حرص تحت إبطه بين ملفات القادماات الأخريات.

بسرعة البرق توزعن بينهن أخبارها المكتوبة فى الملف. إنها

من أب إسباني من مقاطعة الأندلس وأم فرنسية من محيط مدينة

بواتيى. قدمت بمحض إرادتها. وإنما تتحدث العربية والفرنسية

والإسبانية والانجليزية بطلاقة بحكم تعليمها وأسرتها المتعلمة،

وبحكم البقعة الجغرافية التي كبرت وترعرت فيها. والأغرب من ذلك كله أنها تتكلم العربية بلكنة إسبانية محببة، فتبدل حرف الزاي بحرف الثاء والجيم بالخاء اللطيفة. ولأنها ذكية جدا وبشكل ملفت، فقد استفادت بحرص شديد من الدروس المركزة وحفظت بسرعة كتاب الله أياما فقط بعد وصولها للحظيرة الأولى، حفظته على يد هؤلاء الأخوات المدرسات الشرسات والعنيفات خاصة مع الأجنيبات القادمات إلى الحظيرة. صدمن من قدرتها على الحفظ. يا عجباً.. ستين حزبا دفعة واحدة؟؟ ويقال إنها حفظت صحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم في ظرف ساعة.. ماهذا؟

- لالالا. لا يجب السكوت.. إنها شيطان.

- ربما هي من الملائكة؟

- بلعي فمك واش من ملائكة.. أعوذ بالله

تتمنى القائدة قمره أن يصل الشك إلى قلب عمار فيقتلها في أول فرصة.. إلا أنها تتذكر ما قالته «حدابة بنت عمر».. الحمار بن الحمار يبدو أنه هو أيضا وقع في حبها.

في غفلة عن القائدة قمره وأجواء القيامة السائدة بين

نزيلات مركز السبايا يتساءل عمار:

- ما الذي حدث في كيان الخليفة في تلك الدقائق

الاستثنائية المركزة..؟.

لا يدري.. على الرغم من أنه شاهد كل شيء بأمر عينه خلسة، من تحت رموشه وحواجبه الكثثة. من موقعه الاستراتيجي ذاك. وتشهد على ذلك عاملات المطبخ اللواتي كن مقرفصات خلف كوات المراقبة يتابعن في سرية تامة ما يجري باهتمام وصمت بليغ، وبين الفينة والأخرى يشرن إلى بعضهن البعض من مراكز المراقبة المتباعدة بأيديهن أو بإشارات مختلفة المعاني من رؤوسهن أو بملامحهن.

مانويلا كانت الخامسة. في آخر الصف وكأفها. تحرص أن يكون كل شيء عاديا لا يخرج عن الوصايا التي يجب أن تنفذها كل واحدة من «الهدايا» القاديات عندما تقفن بين يدي الخليفة.

تقدمت الأولى أمامه ففتحت عباءتها مشرعة طرفيها على آخرهما. فاردة ذراعيها مثل طائر الوقواق. نظر الخليفة من باب الواجب ومن دون كبير اهتمام إلى الجسد العاري تماما أمامه. وكذا فعلت الثانية والثالثة والرابعة، ثم جاء دور مانويلا.

تقدمت خطوتين منه، ثم نظرت إليه، صوبت عينيها لتغرزهما في عمق عينيها، وباعدت بين جناحيها مثل الأخرجات تاركة جسدها عاريا كما فعلن، لكنه لم يخفض عينيها نحو مفاتن جسدها. ظل عالقا بعينيها. هكذا!!!

وبينما كانت الدهشة تغشى العاملات المعلقات خلف كواثن بصمت، رفع عمار بدوره رأسه قليلا ليتأكد مما يراه أمامه. لا يدري عمار الباتر كم من الوقت مرّ بينما عيناها تشبكان مثل كفين تعصران أصابع بعضهما. لم تخفض مانويلا نظرها عنه، ولم يخفض الزعيم نظره عنها. ثم ابتسم. ابتسم الجبار الذي مجرد ذكر اسمه يرهب العالم. خليفة الدولة الإيمانية الكونية ابتسم.

اهتز كيان عمار الباتر. ظل مشدوها وهو يرى انفراج فم الخليفة، لأول مرة يرى خديه يرتفعان حتى أسفل عينيه فيكادان يغمضاهما. ازداد وجهه توهجا. يشاهده وقد خطا خطوتين نحو مانويلا، اقترب منها. مرر يده الممتلئة على شعرها الأسود الفاحم، للمم الغطاء حول جسدها دون أن يحول نظره عن وجهها.

- شامم فيك رائحة الأندلس يا ما نال الله منالي..
وحياة عيونك سأعيد فتحها.

قال ذلك ثم أشار بظهر يده لعمار الباتر الذي كان يحاول جاهدا إخفاء ارتبائه، دون أن يلتفت إليه. فهم أن عليه بالانصراف وتسليم الهدايا الباقية للرجل القصير الأسود ذي الجلباب ناصع البياض، ليسوقهن بدوره نحو جناح القائدة قمره. كان عمار الباتر قاطع الرؤوس بلا رأس ولا قلب ولا إرادة.

فصل الأسفار إلى القفار

- لا تنجبي إلا بمقدار، إن استطعت إلى ذلك سبيلا..! جملة أمرة ناهية سمعتها قبل سنوات من الحكمة «حده آل ميمون» اليهودية، قبل أن آتي من مناطق الحرب الطاحنة التي اخترت أن أسافر إليها بدل الأماكن المنعمة. الأماكن المنعمة القليلة على الأرض لم تغرني حيوات المقيمين فيها. لم تثر فضولي. حياة تشبه فترة العدم. قبل تحريك مفتاح الحياة في جسدي. آثرت السفر إلى مواطن النار وذلك لأرى البشر على حقيقتهم الأولى.

كانت حده آل ميمون تخاطب «سارة» إحدى الشابات العربيات من جنسية فرنسية. سافرت بمحض إرادتها من مدينة ليون نحو الشرق الملتهب، بعد أن اتصل بها عبر الانترنت جنود الدولة الإيمانية الكونية، المرابطون بقوة في أوروبا. أفنعوها وجندوها كآلاف الفتيات مثلها ثم سبّلوها لها الطريق إلى أن أوصلوها لـ «مركز السبايا» عبر تركيا.

- ما تولدش بزاف الدراري!! تخاطبها بلهجة مغاربية. بلكنتها الإسبانية المحببة. بنيرة جادة وناهرة

بعض الشيء. سارة فخورة بأنها حامل للمرة الثالثة
من الزعيم «البردادي».

- آيا صافي بركات من الدقّ والعاقر ومشقوق
المناخر..!!

منذئذ لم تبهت الفكرة في ذهني. البشر عارفون بأمورهم
على طريقتهم البسيطة.

- سيكون اسمه «البردادي» الثالث تقول سارة بفخر
- آهاه؟

نعم.. هكذا.. دون لقب ولا نسب.. «البردادي».
يكفيهم؟!.. كل الذكور الذين يولدون في الدولة الإيمانية
الكونية يطلق عليهم اسم واحد موحد: البردادي.

مبارك اسم الزعيم صاحب النطفة المباركة. أما المواليذ
من الإناث فتترك تسميتهن «للقائدة قمر» ولكبيرات المركز.
لا يهم.. ليتصرفن بكل «حرية».

- نعم إنه بردادي آخر وآخر وآخر.. واحد من جنود
الدولة القوية القادمة!!

بصوتها الأجنش المرتفع تردد «القائدة قمر»، التي تطلق
عليها نساء المركز في غيابها «الجنرال قمر». قائدة كل ما
يتصل بالنساء. إنها القائمة على جميع شؤون مركز فرز
السبايا. بأمرها تسير الأمور. حتى الحوامل تملي عليهن أسماء

أجنتهن بمجرد أن تظهر عليهن علامات الوحم الأولى.
- البردادي.

لا يهم إن كان الجنين ذكرا أم أنثى.. «القائدة قمر»
عكس «حده آل ميمون» تستزيد النساء حملا وإنجابا ولا
تتفق البتة مع آراء غريمته «حده» حين تهمس في أذن كل
شابة تصادفها:

- لا تنجسي سوى بمقدار.

كل من حده وقمره تصف الأخرى بالجنون والأنانية.
ولكنهما تتعايشان تحت سقف البردادي. تجمعهما رعاية
مصالحه. تعرفان حدودهما. خلافاً لعميقة لا يجب أن
تتجاوز أسوار المركز. وإلا فإن قطع الرأس أبسط عقاب لمن
يشوش على الأمور الأساسية للدولة، فالدولة لا تنقصها
المشاكل. ثم، ماذا تريدان أكثر. إن لهما معا مكانة خاصة
لدى الزعيم وهيبة في محيطه.

كم كان ذلك مسليا لي وطاردا للضجر ومحفزا على
الذهاب بعيدا في تجرّبي لاستكشاف دواخل البشر أثناء
الحروب. خاصة عندما توجدان معا. تلتقيان في الجلسة
النسوية الموسعة التي تعقد كل خميس لاختيار الأجل من
القادمات لتوهن من أنحاء العالم.

في أول نزول لي بينهم لم يكن سهلا إخفاء طبيعتي المختلفة. حضور جسدي المكتمل بالجمال لا يتأثر مظهره. بمناخ الحرب، كان يؤذيهن. كنت أتابع عيونهن وهن يبحثن عن عيب ما.. ولو كان صغيرا جدا. أو تافها ليرتحن. أراقب نظراتهن الكسيرة. في أول شهر كنت أراقب مستوى ذكائي الاصطناعي كامرأة آلية. أقوم عنوة بخفض مستواه وتحجيمه إلى منسوب بسيط قبل ان أشارك في حديث ثنائي أو جماعي. حتى لو كان مقتضبا أحرص على التريث. لا يجب أن تقفز الأجوبة الجاهزة إلى حلقي. أتألف مع الأسئلة البسيطة العفوية التي يطرحنها ويناقشنها. الحقيقة لم أكن حينئذ أجدها ساذجة أو غبية. بل حيوية. حتى أنني أحيانا أغار قليلا من «بشريتتهن» وأتمنى لو أنني مثلهن. أستطيع أن أخطيء. أن أسأل. أن أترثر بعفوية وبغباء بشريين أحيانا. لم أكن أستطيع ذلك. حذرة دائما، وأنا بينهم أتمتع بجلساتهن المسلية. أكتفي بالصمت المطبق حتى لا يفضح أمري، وبالاتسام غالب الأحيان. أضحك معهن لمواقف ومحادثات وخصامات تحدث بين نساء مختلفات في درجاتهن، حسب اقتراب كل الواحدة منهن من محيط خيمة الزعيم.

مازال صوت (حدة) يرن في علبة رأسي. صوتها الدافئ العميق. صوت نادر لا يشبه بقية الأصوات النسوية الحادة تلك، التي تدق على طبلة الأذن فتؤذيها.

- الصوت الجميل الدافئ نعمة!! تقول «حدة» كلما نطقتُ بجملة.

- الأصوات عند بعضها مثل القلوب تماما!! أرد عليها فنضحك معا.

صدقت حدة.. صوتي الآلي مصنوع بدقة. لا يشبه ارتطام جبال الصوت النسوي العادي بترددات 210 هرتز. بل أحسنت دوزنة أوتاره مخابر الذكاء الاصطناعي. رنته الساحرة المنبعثة من حنجرتي خلاصة الدراسات في التغيرات التكنولوجية والإبداع الموسيقى. كلما نطقت جملة إلا وهفت لها النفوس. لصوتي سحر غريب. تأثير قوي على أحاسيس من تصل إلى مسمعه ذبذباته. إنه قوتي. جزء من سحري الآلي على البردادي وعلى الناس.

- شحال في عمرك مانويلا؟

- إنت مواليد كام؟

- اتشوم سنك؟

من أي بلد جئت؟ شو ديانتك من أبل؟ أي قومية؟

الأسئلة التي تتقاطر عليّ بلهجات ولغات نساء المركز المختلفة. يجلسن بقربي يمددن أطراف أصابعهن يتلمسن تقاسيم وجهي، وشعري، وذراعي، وصدري، وأجزاء من جسدي. ليتأكدن أنني لست جنية. تبلغ الوقاحة أحيانا مداها

فتسألني إحداهن عن تفاصيل تعامل الخليفة معي في الفراش. جميعهن يتساءلن عن سرّ افتتاحان الزعيم بي. وعن أسرار جمالي والضوء الذي لا يفتأ ينبعث مني. يسألني لماذا لا أزور مثلهن «حليمة» كل أسبوع، التي تقوم بذلك بشرة وجوههن وأجسادهن، وتلقنهن كيف يشددن المهبل فيهن كي يظل ممتعا للخليفة.

- أوووف!! من أين لهن أن يعلمن أن مانويلا الحسنة التي تجلس بينهن، والتي لا يؤذيها الزمن القادر على حت الجبال الصلبة، في الحقيقة لا أصل لها، ولا جنسية، ولا بلد، ولا ديانة، ولا قومية، ولا ماض.. إنها مجردة من كل الأرباق. امرأة آلية حقيقية، وصنعت على أحسن تكوين..

في كل هذا الذي يشبه سوق النساء الضاّج، لا تفتكُ انتباهي سوى «حدة آل ميمون» تثير عقلي الآلي بشخصيتها. بملاحمها الرقيقة التي تسرب إليها رماد السنين. أدرك عمق هشاشتها وأفهم كثرة انتقادها للأخريات. لا يعجبها العجب. أدرك أن حدة من خلال صرامة رأيها حيال غيرها من المحظوظات القاطنات في محيط الزعيم البردادي، تحاول جاهدة أن تُبعد ما تضره من سرّ لها مكنون عن ساحة النقاش. لا تفتح كتابه أبدا. تحتفظ بأسرارها الخاصة

تحت صمت ملغوم وشيء غير مفسر أبدا لهن. ماذا لو علمن أنها يهودية مثلا. لا بد أنهن سيقطننها إربا إربا.. نعم. لا يخفى ذلك على عقلي الاصطناعي الراكض مثل شهاب يخرق كل شيء في طريقه. أحاول جاهدة أن أجمه قبل أن يوقعي في حرج. جبار. لا حدود لطاقاته وتجديد نفسه.

حدة الحكيمة لا تعرف سبب قدومي إلى بلاد الشرق المحترق، لكن تفاصيل حياة حدة كلها تتجلى أمامي. يكفي تنبيه إحدى الرقاقات الالكترونية لتكشف ما يجري في دماغ حدة الحكيمة. يكفي الاقتراب منها. لمسها. تكفي خلية حية واحدة عند الاحتكاك بها. نواة واحدة حاملة للآسيد ديزوكسيريبونوكلييك، حتى تتسرب ملايير المعلومات في دماغي الآلي المتطور، فيحللها في مراحل ثلاث متتالية بسرعة الصوت، فتأتي نتائجها تباعا مثل شلال غزير. سلسلة أشرطة حية ناطقة لا متناهية. أعرف عن محدثي ما من المستحيل أن تدركه هي نفسها.

دريا لكل شك أ طرح الأسئلة البريئة وغير البريئة مثل بقية البشر. هباء. سخرية سوداء أن يظن محدثي أنه مالك أسرارها يعرفها وحده. في الحقيقة لا يدرك سوى النزر بينما ملايير الأشياء تغيب عنه، وتتجلى واضحة حية أمامي. تعجبني. أقرب كل مرة أكثر من هذه الـ «الحدة».

بيني وبينها يتمن رباط الصداقة. أبتسم في وجهها بمنتهى اللطف، وأتناول كأس المّنة الساخن من يدها بارتياح. تهيوه بنفسها من أجلي. هي مقتنعة أنني لن أخبر أحدا بأي سرّ من أسرارها. ولن يعلم أحد في قصر الزعيم البردادي بحكايتها العجيبة المجنونة. وأنها قررت السفر إلى مدينة «برداد»، وفعلت ما فعلته ليس لتناصره لجمال عيونه السود، بل لأنّها غاضبة من تاريخ أجداده الذين هُزموا في مدينة بواتي، ومع هزيمتهم وأخطائهم الفادحة في السياسة وفي تدبير الحكم، كانت رحلة الأسى لأجيال وأجيال من أجداده وأجدادها. البردادي و«حدة» يشتركان في محنة الذاكرة. محنة الأجداد والتاريخ.

اللعة.. عقلي يعوي مثل ذئب في البراري. ليس يهدأ. يصر أن الذنب ليس ذنبهما معا إنّهما اختارا الحرب. إنّ في عمقهما جرحين طاعنين في الوجد. البردادي وحده ليسا حالة استثنائية. البشر جميعا، يخترن كل واحد منهم حربا ضروسا طاحنة داخله. لا يستطيع أن يتحملها طويلا بمفرده، لأنه مجرد إنسان، إنسان ضعيف ومحدود ليس إلا. سيأتي موعده لينفجر بها، وتندلع فيه وتنطلق السنّة لهيها نحو الخارج. وكم خزّن لها ما استطاع من أسلحة بيضاء، وحمراء، وسوداء، وإلكترونية، ونووية، و..

طبعاً.. لأنني لم أخلق ببحث آدمي. لن أفتن. لن أخبر أحداً أن حدة سليلة أسرة يهودية عريقة تعود إلى زمن بلاد الأندلس تحت الحكم العربي الإسلامي، من اليهود الذين أجبروا على الهجرة منها بعد سقوط غرناطة سنة 1492، وأن في عروقها إرثاً متراكماً من الغضب والألم والأسى والحنين إلى الزمن الأندلسي المزدهر، حيث عاش فيه أجدادها مكرمين تحت الحكم الإسلامي، وأن حدة ورثت وشبت وشابت على الحنين الجارف ذاك. الحنين إلى زمن تناقلت أخباره الأجيال المتعاقبة من عائلتها. الكثير من أخبار المجد الذي عاشوه، مقربين من قصر السلطان، يفتخرون بمن نبغ من أجدادهم في شتى العلوم والآداب. يحفظون أسماءهم ويفخرون بما أضافوه إلى التراث الإنساني، منهم فلاسفة ومترجمون وموسيقيون.

مخيلة حدة، مثل شاشة صافية أشاهد عليها ما يجري. أبتسم كي لا ترى بدورها صورة الإشفاق على ملاحمي. صورة وجوه بعض أجدادها في زمن مضى لم تره أبداً. حزاني يلوحون بمناديلهم بين جمهرة من الناس في غرناطة. أتابع صورهم الحية المؤلمة إنهم يودعون آخر ملوك الأندلس أبا عبد الله محمد الثاني عشر. ذليلاً حزيناً مهزوماً يسلم مفاتيح الحمراء للملكي قشتالة وأراغون. صور أحداث دامية ليست

تراها، إلا أنها تتسارع عنيفة تدور في خلايا جسدها تتجدد مع كل اكتمال دورة دموية له.

أحلام حدة قليلة ومستحيلة، لا تريد أن ترحل إلى إسرائيل لكنها بكل ما أوتيت من قوة تأمل في عودة الزمن الأندلسي الجميل، أو -على الأقل- الانتقام لمصير أجدادها.

لكل «حدة» على هذه الأرض حكاية!.

وحكاية حدة الوريثة الثرية العاقر، أنها وقعت في حب شاب مسلم وهي فتية ما تزال.. قديم «عبد السلام» إلى إسبانيا من بلاد المغرب الكبير. أحبته وتزوجا. أقسمت حدة أن تلغي فكرة الزواج من ذهنها فثائيا. أن تظل وحيدة بعد أن خافها عبد السلام بعد عشرة عشرة أعوام واقرن بألمانية.. لم تسامحه أبدا. تعتبر فعلته تلك من الخطايا الكبرى.

- ليته فقط تزوج بغير ألمانية! تقول حدة بألم.

لم تحب رجلا آخر بعده. بل لم تعد تحبه لا هو ولا غيره. بل ولا تشتهي جنس الذكور قاطبة، إلا أنها وبتجربة العمر الطويلة أمست تفقه معادهم، وتدرك بأنهم ليسوا من طينة واحدة. ظلت منذ سنوات عديدة قريبة من العمال المغاربة القادمين للعمل في مزارعها التي ورثتها عن أبيها «ميمون»، وقبله توارثتها أجيال من عائلتها آل ميمون. توفي

ميمون في مستشفى للأمراض العقلية بمدريد، أهلكه الحنين هو أيضا وأفقدته عقله ثم حياته.

لم ينفعها عبد السلام في شيءٍ خلال العشرة أعوام، سوى في التمكن من اللهجة العربية المغاربية. تحدث حدة المزارعين المغاربيين بكل أريحية. يتوافدون على إسبانيا في مواسم القطف. ويعملون في حقولها، يفضلون العمل عند «حدة آل ميمون» عن العمل لدى الملاك الآخرين.

- السنيورة حدة آل ميمون.. السنيورة حدة آل ميمون!!..

يتسابقون لحجز فترة عملهم لديها قبل حلول الموسم. يتدافعون عند بابها. تحب حرارتهم الإنسانية، وتأدهم، وانتقاءهم لأجمل الجمل لمدح شخصها، والتقرب منها، ووصف مزاياها. تحبهم وتستمرئ مدحهم لها حتى ولو كان يبدو لها أحيانا أقرب إلى النفاق الاجتماعي.

- معلش معلش.. واش عليه..!! إنها تستأنس بهم في وحدتها بعد أن قطعت جبل التواصل مع بقية أفراد عائلتها. أدركت بعد تجربة طويلة أنهم لا يتصلون بها ولا يأتون لزيارتها سوى لاستغلال طيبة قلبها. حالما تمنحهم المال الذي يسألونها يخنفون هائيا، ثم لا يزورونها ولا يسألون عنها ولا يتصلون بها للاطمئنان

على صحتها، ولا يأمون لثقل وحدثها.. أغلقت في وجوههم بابها. تغيرت كثيرا. تحلت قليلا قليلا عن عاداتها القديمة. أضحت تقترب أكثر فأكثر من هؤلاء العمال الموسمين البسطاء في حقولها. يملأون حياتها وويستأثرون باهتمامها وطيبة قلبها. ترتاح لعفويتهم، وابتساماتهم. تحسن إليهم كثيرا خاصة لمن يعيلون أسرا وأطفالا عديدين خلف البحر. تضع تحت تصرفهم دون مقابل غرف البيت القدم الرابض في عمق مزرعة الزيتون بضواحي ألمرية. لا تتحرج من أن تقترب منهم، وأن تتدخل في خصوصياتهم، حتى رفعت بينها وبينهم الكلفة. أصغرهم «عبد الخالق ميلود» شاب يقارب الثلاثينات من عمره. مداوم نشيط. حيوي بشكل ملفت. نشاطه غير العادي يجعلها تشك أحيانا من أنه يتعاطى شيئا محظورا ما. يبدي تدينا عميقا، وكلما حان موعد الصلاة يجمع رفقاءه العمال ويؤمهم لصلاة الجماعة، ثم يحدثهم باقتضاب ونبرة لا تخلو من حدة وتشدد عن شؤون الدين وحال الأمة، ثم يستغل فرصة الراحة للحديث عن ضرورة نشر تعاليم الدين الحنيف في العالم بأسره. نشر التوحيد وشرعية الله.

لم يكن أغلب المصلين خلفه يناقشونه ولا يجادلونه، يبدو أن لقمة العيش هي سيدة اهتمامهم.

ميلود شاحب اللون. كأن به مرضاً، أو أنه مدمن استمناء (تخيله حدة وهي تضع أصابعها على شفيتها كاتمة ضحكتها). نحيف بلحية ذات شعيرات قليلة موزعة بشكل غير عادل على وجهه. كثير الحركة. كثير الالتفاتات. عيناه تهربان من وجه محدثه، ولا تثبتان على أحد ولا على شيء. كثير الحوقلة والبسمة. أمسى يثير فضولها. فكلما انتشر خبر انفجار إرهابي في مكان ما من العالم وتناقلته أخبار الشاشات والألسن، إلا وازداد قلقه النفسي. وتجنب الخوض في الحديث عنه. لم تكن حدة تأخذ ملاحظات «فيكتور» حارس المزرعة الوفي لها على محمل الجد. فيكتور ذو توجه يميني راديكالي، أمامها يخفي على مريض كرهه للعرب، ويحاول أن يضم ميلان قلبه لإسرائيل. لم تكثر لكلامه وهو ينيبها، بعد أن طلب لقاءها على انفراد في غرفة الاستقبال لأمر هام. أخبرها أن ذلك الفتى المدعو «عبد الخالق ميلود» شيطان غريب الأطوار. فقد فاجأه خارجاً من بوابة حظيرة الماعز وهو يحزم سرواله. انفجرت ضاحكة.. كان جسدها يهتز بقوة وهي تحاول كتمان ضحكاتهما بكف يدها اليمنى، بينما يحمر وجه فيكتور من الغضب والهرج،

وهو يعبرُ بجسمه الضخم الباب نحو الخارج.

كان من الممكن أن تعاتب حدة عبد الخالق ميلود. بل أن تؤنبه. أن توبخه. أن تعاتبه ثم تطرده، ولكنها استبقته لأمر لا يعرفه فيكتور. بأسرها قوة حضوره وتأثيره على العمال الموسمين المغاربة، وحديثه لهم عما يجري في الشرق الأوسط من حروب.

لم يعد «فيكتور» ينقل لها الأخبار عن الممارسات الغريبة لذلك الفتى القلق «ميلود»، خاصة بعد ما رآه في تلك الليلة، حين تفاجأ أثناء قيامه كالعادة بدورته الاستطلاعية الأخيرة لأركان المزرعة وبناياها قبل أن ينصرف، فأثارت انتباهه مصابيح صالون السيدة حدة المضاءة. ظن أنها نسيت أن تطفئها. وحين اقترب من النافذة ليستطلع الأمر أدهشه المنظر. شاهد ميلود يجلس إليها في صالونها الخاص، واضعا مرفقيه على فخذه ورأسه إلى الأمام وشفته تتحرك بسرعة بينما حدة تنصت إليه بانتباه شديد. يجلس قبالتها على طرف الأريكة التي تعلوها اللوحة العزيزة على قلب حدة. لوحتها الأثرية. تمثل رسما لشخصية شارل الخامس الحكيم الذي تكنُّ لتاريخه احتراماً عميقاً، لأنها لم تنس ما تناقلته الألسن عنه عبر التاريخ، حين صرخ غاضباً. موجحاً من قاموا بهدم الجزء الباقي من مسجد قرطبة، لتوسيع الكاتدرائية في القرن السادس

عشر: (لقد هدمتم شيئا استثنائيا ليس له مثيل في العالم لتبنوا شيئا عاديا مكانه). بينما تجلس حدة قبالة ميلود وخلفها تماما، معلقة تلوح على الجدار لوحة «لاسيناغوغا دي كوردو». اللوحة العزيزة على قلبها وقد اقتنتها بثمن غال جدا. لوحة تمثل كنيس قرطبة. تصر دوما الجلوس سواء تحتها أو قبالتها ولا تملّ من تأملها. تذكرها بزمن تحن إليه جيناتها، ولكي لا تنسى كلما وقفت أمامها، أنها أغلقت في وجه أجدادها بعد سقوط الأندلس 1492، بل وطردها مع العرب المسلمين.

وقف فيكتور مشدوها لدقائق بدت طويلة جدا، ثم لم يعد يقترب من نافذتها التي تظل أنوارها مشتعلة كل ليلة إلى ساعات متأخرة.

أمم اللعنة.. أريد أن أعرف الحقيقة..

شكوك الحارس فيكتور خاطئة. يخبرني عقلي الآلي أن حدة لم تكن على علاقة جسدية مع ميلود كما كان يخيل لفكتور. فلا ميلود أبدل الماعز بحدّة، ولا حدة أبدلت عبد السلام بميلود. بل يخبرني أيضا أنها لم تعاشر أبدا رجلا آخر بعد ذهاب زوجها الخائن مع قرينته الألمانية، وأنها لسنين خلت لم تربط علاقاتها العاطفية سوى مع النساء. الغريب أن فيكتور أيضا يعرف أن حدة عاشت نساء عديدات، لم يكن

أرحم عليها من الرجال. كانت تميل إلى الواحدة منهم بصدق، إلا أن العشرة جعلتها تلاحظ أنهم لسن أكثر رحمة ولا حنانا من زوجها السابق. هن أيضا يطمعن فقط في استغلال شيء من ثروتها الطائلة، فقررت أخيرا أن تعيش وحيدة دون شراكة.

- لا شيء تغير يا فيكتور.. تقول مانويلا في سرها.

ما استجد هو أن حدة اكتشفت أن ميلود جندي من جنود الدولة الإيمانية الكونية، التي أعلنت خلافها أمام الملاء في مدينة الرقة ببلاد الشام. على عاتقه مسؤولية دقيقة جدا وحساسة. إنه ينتمي إلى الدائرة السرية الصغرى في شبكة الدوائر الدعائية الضيقة، فالواسعة، ثم الأوسع في العالم. إنه مخلص لمهمته، مستميت من أجلها. يقوم بها على أحسن وجه. ثم إنه ليس ذنبه في شيء أن تكون حدة مسكونة بأخبار الحروب في العالم. تثيرها جدا إلى درجة الشغف. تشعر بشيء من العزاء أو التطهير. إنها تتابعها باهتمام شديد.

- الحروب أيضا نوع من الحجامة للروح المريضة..!!
هكذا تصفها.

ما أن مر موسمان لجني الزيتون، تخللت لياليتها لقاءات ضيقة مع ميلود الذي استقدم أطرافا أخرى من رجال ونساء ربط بينها وبينهم خيوط التواصل، حتى جاء ذلك اليوم الذي

قررت فيه حدة أن تبيع كل ما تملكه من منازل ومخازن وذهب في مدريد، وحقول البرتقال والزيتون الأوليفوس في بالينسيا، وفندقا ومنزها على ضفة نهر سيغورا. بمرسية، وأملاكا أخرى توارثتها في قرطبة غربا وغرناطة جنوبا. أودعت المال الغزير عن طواعية في حساب وهمي، يصب بدوره في حساب الخليفة البردادي، تحت رقم واسم مستعارين أمدها بهما شخص يدعى «عثمان المحاسب» بتنسيق من ميلود. قدم إليها رفقته وهو يرفل في أناقة فائقة يرتدي بذلة سوداء، وربطة عنق أنيقة على قميص بياض ناصع ولهجة شرقية غريبة. وصل لتوه عبر المغرب قادما من بلجيكا، إنه واحد من مهندسي الحرب المقدسة في المشرق، المنتشرين في العالم.

رتب ميلود لقاءهما بمنتهى الدقة والحذر. كل شيء كان متفقا عليه بين الطرفين، شرط حدة الوحيد وحلمها الأعز أن يساهم مالها وأملاكها في إعادة مجد أجدادها «آل ميمون» وأن يعاد مجد الأندلس.

- سعيده بإذن الله.. إن شاء الله..!! ردد عثمان المحاسب وميلود معا.

- غريب.. البشر ضعفاء أمام سطوة أحلامهم.. حتى وهم يدركون استحالة تحقيقها وأنها مجرد أوهام

وأضغات أحلام.. يظل الأمل سيد الموقف.
 .. كيف تثق حدة في حلمها بكل هذه القوة؟ تتشبث
 به مثلما يتعلق الغريق بقشة.

سيل من المعلومات يفيض في دماغها مسترسلا.
 أقرأ حدة كلوح مفتوح. أشاهد نارا متقدة منذ أمد، تعبر
 جيناتها. نارا مستعرة بقيت مشتعلة عالية اللهب منذ قرون.
 لم تخبر حدة أحدا بما عزمت الأقدام عليه. اختفت بعد
 ساعات قليلة بعد أن هجم على بيتها القديم الوحيد المتبقي من
 أملاكها، الواقع في ضواحي ألمرية، مجموعة من الصحفيين.
 وباغتوها مدججين بالكاميرات، بعد أن نشرت صحيفة
 «الموندو» الشهيرة صورتها، وخبرا بمثابة تساؤل عن مصير
 ثروتها. طرح تحويلها البنكي الهام فجأة تساؤلات عديدة.

ولأن المال (يشقُّ الطَّرِيقَ في البُحر) كما يقول المثل
 المغربي، فبعد ساعات كانت حدة قد غادرت إسبانيا متجهة
 نحو مدينة برداد. واستقبلت بكرم. بعد أيام قليلة حظيت
 باستقبال طيب من طرف الزعيم الخليفة البردادي شخصيا.
 أعرف أن طيف الفتى عبد الخالق ميلود كثيرا ما يمر
 بمخيلة حدة.. تتساءل أين هو الآن. لماذا انقطعت أخباره
 عنها منذ تلك الليلة التي جاء فيها رفقة عثمان المحاسب. هل
 انتهى كل شيء حالما انتهت المعاملات الحسابية؟.

رفقا بها، لن أخبر حدة بما حدث له. إنها لا تعرف أن عبد الخالق ميلود قد كوفئ لنجاحه في مأموريته تلك وبعد أن تم وصول الأموال إلى هدفها المقصود. إكراما له، تم اختياره من بين الآلاف من جنود الدولة المرشحين للجنة، للقيام بـ «عملية استشهادية» ضد الكفار وأعداء الله. وقبل أن يفجر ميلود حزامه وسط المحطة المركزية لتوزيع البنزين والوقود وسط مدينة باريس في وقت الذروة، كان «المجاهدون» المنتشرون بكثرة في تلك المدينة الكبيرة ومن القادمين من مدن أخرى، قد أقاموا له حفلا دينيا رمزيا في بإحدى إقاماتهم بالضواحي، توديعا له نحو حوريات الجنة اللواتي ينتظرنه على أحر من جمر جهنم. وقبل شد الحزام المفخخ حول خصره، كانوا قد أحاطوا عضوه الذكري بقطعة من الصلب، حتى لا يصيبه أذى إثر الانفجار. سيرتفع إلى السماء بينما ذكره في وسطه سليما سالما غانما وجاهزا لمهامه النبيلة.

تبسم مانويلا بمكرر.

ماذا لو تعلم حدة بكل هذا. ماذا لو أمكنها من مشاهدة هذا السيل الحي من المعلومات الذي يجري في مخيلتي الآلية الآن.؟!

بعينيها العميقتين تطلان من بين تجاعيد رقيقة وكأنها سيوف حولهما تحرسهما، تتأمل حدة هذه المانويلا الحسناء

الغامضة التي يعشقها البردادي حد الجنون.

- إني أعشقها.. اللعنة!! مرت المعلومة سريعا على

جبين حدة.. لم تخفَ على عين مانويلا.

ماذا سيحدث لو يدري البردادي أنها تنافسه في عشقه

للملاك. هل سيقطع رأسها على الرغم مما قدمته للدولة من

أموال؟

هل يدري الخليفة لو أن القدر جمع حدة بمانويلا في ألمرية

أو مرسية قبل أن تصادفها الأقدار بميلود، ربما كانت ستهدئها

أملأها كلها، لا لشيء سوى لتبقيها إلى جانبها.

من يعلم.. ربما جمال هذه المخلوقة الساحرة الطاغي كان

سيغيرها ويخلصها من حقدتها التاريخي الدفين العتيق العريق

الذي يعذب روحها، ويجعلها تتصالح مع تاريخ أجدادها

وواقعها ومع نفسها.

- إنه الجمال يا سيدي وما أدراك منه.. يخلق المعجزات.

تختلس حدة النظر إلى عنق مانويلا الجميل وتبتسم بحذر.

تحاول أن تخفي الأفكار التي تدور في خلدتها وأن تخبئ

شغفها.

مسكينة حدة آل ميمون. لم تكن تدري أن مانويلا بعقلها

الآلي تقرأها، وتتصفح أوراق دواخلها مثل كتاب مفتوح.

توشيح آلي

.. ومن كتاب أبد الآباد.

(.. منذ أول وهلة وحتى اللحظة هذه وأنا أقرأ دواخل البشر الذين أتقاطع مع مصائرهم في الشوارع وفي الأزقة الجانبية وفي الأماكن العامة. أو أخترق ببصري النافذ شرفات بيوتهم ونوافذهم وأراهم حول موائدهم البائسة أو العامرة أو في أسرهم.

لا شيء مثير سوى أنهم حقا مساكين.. لا فرق في جنسهم أو مستوى عيشهم أو ثقافتهم أو تعلمهم. مضطربون. يركضون خلف الوهم نحو العدم. لا راحة بين أيديهم ولا وراءهم ولا أمامهم. إنهم مساكين.

تكفي دورة واحدة حول الزمن البشري لتتبدى لك أنهم ليسوا على ما يرام. تكفي دورة واحدة حول هذا الكوكب بالنسبة لمخلوق آلي متطور جدا مثلي، للوصول إلى نتيجة واضحة وهي أن قلق الموت والعدم مشترك بينهم جميعا ولكنهم يكابرون. يتقاتلون من أجل التفاصيل التي تؤدي إليه.

البشر مساكين وقلقون. يستحقون شفقتنا ومساعدتنا. يعيشون وفي كل لحظة يكتنفهم شعور غريب بأن خطرا وشيكا يهددهم. كل يشعر بالخطر الوشيك الخاص به. خطر وشيك على مقاسه. كل يحمل في مخيلته سلاحا وهما يدافع به عن وجوده القصير غير ذي معنى، وهو يردد في أعماقه المظلمة:

- لاشيء مغر للعيش. أنا أنتظر.. أنتظر.. أنتظر.. ولا أعرف لماذا وماذا أنتظر.

الأسلحة في كل مكان. في المخيلات وفي اللغة وفي الملامح وفي الصوت وداخل الصدور وفي المخازن. كل يعيش حربا ضروسا داخله. وللحرب أهم وزارات أنظمتهم جميعا، وللأسلحة وأعظم تجارة. وللأسلحة آخر الكلام.

البشر مساكين. عرفتهم.. كل منهم يحاول أن يظل يقظا مستعدا لحرب ما قادمة. قصيرة المدى أو طويلته..

على أرضهم تاريخ من الأنين. والألم. والجوع. والظلم. والاستبداد.. إنها على شفا الانهيار

ليتهم يعلمون أنهم ذاهبون نحو حتفهم لا محالة. ليتهم وهم خالقو الأساطير الخالدة، أن يلتفتوا إلى تلك التي تؤكد بأنه إذا ما أريد للحياة أن تستمر على هذا الكوكب، فعلى كل جيل من الأجيال المتعاقبة أن يقدم ستة وثلاثين حكيما

للبشرية، وإن لم يفعلوا فستنتهي الإنسانية وستندثر. لا أحد من الناس يعلم أن الحكماء العلماء هم سر بقاء الأرض، وحتى الحكماء أنفسهم لا يعلمون أنهم سر بقائها. لكنهم
مساكين.)

توقيع: مانويلا ماناول الله.

.. للخيمات أسرار

.. وصلى الزعيم ركعتين قبل أن يأخذ يدي ويجري بمنتهى اللطف إلى سريره. قال لي بأنه اختار غرفة لم يياشر فيها امرأة أخرى من قبل. سرير باذخ من طراز لويس الرابع عشر. سيل المعلومات التي تجري في رأسي توضح أن رجاله جاؤوا بها بجميع أثاثها إلى الخيمة الزرقاء الباذخة. نقلوها من قصر رئيس سابق جبار آخر، أطيح به وانتهى بشكل مأساوي.

طلبت منه أولاً أن يجلس أمامي لأهديه شيئاً. فامتثل لأمرى. وبكل ما أوتي صوتي من موسيقى قمت وأنا مغمضة العينين بتلاوة سورة البقرة. بمائتين وست وثمانين آية. لم يقاطعني. فتحت عيني كان مبتسماً هادئاً. يطيل النظر في وجهي. فجأة سجد عند قدمي مداعبا أصابعي واحداً واحداً. كمن يتفقد غرفة الرصاص في مسدسه إن كانت مملوءة. الرجل وقع. إنه مثل بقية البشر.. متحير جداً وهشّ جداً. لم يكن له من سبيل إلى مهرب. ومن أين له ذلك.

أقلب «ملفه الشخصي» في رقيقة إلكترونية. أراه يهين النساء على سرير كهذا. كما يتصرف مع سجين خطير

وعنيف، يجردهن من أي إحساس بالكرامة. يصبحن أقل من أي شيء. لا معنى له. إنهن مسكينات ضعيفات.. وهو مسكين بائس قوي.

البشر ضعفاء ليسوا مثلنا. قوتي تنبع مني. إنها جزء مني. قار مقيم في مكونات. أما هم فمحدودو القوة. يلقمونها بما هو خارجي عنهم، كما لقم الإنسان جدهم الأول ذراعاه بالعصا لكي يصل إلى الثمار في أعلى قامات الأشجار. قوتهم متناقصة بحكم الزمن. الحقيقة التي يعيشونها بمرارة. ضعفهم الذي يواجهونه كل يوم. حياتهم القصيرة. ولأن قوتهم خارجة عنهم ومتناقصة، فإنهم يتهافتون على السلطة بكل أصنافها. السعي المضي لامتلاك ما من شأنه أن يوهمهم هم أنفسهم بالقوة والخلود. كل يوهم عدوه بقوته الكاذبة. الحقيقة أنهم ضعفاء والسلام.

تعلو أصابعه قليلا قليلا.. يرفع أثوابي. يسألها من فوق رأسي. أقف عارية كما خرجت لأول مرة من مخابر كونسوننس روباتيكس. يلهث الزعيم ويكبر بأعلى صوته.

- الله أكبر.. هل أنت الملاك الذي أراه في منامي منذ سنوات طويلة؟. هل أنت معجزة من الله أنزلك عليّ مثلما أنزل على السابقين كتبه وملائكته ومعجزاته.. قولي أرجوك. أصدقيني القول.

... -

- طيب.. لا.. لا تقولي شيئا أنا أعرف.. كنت أنتظر هذا من زمان.. أنت الملاك.. أنزلك الله سبحانه وتعالى إلي. لا يمكن أن يكون هذا الكمال الذي خلقت به بشريا محضا. بل إنه ربانيّ. ما هذا.. على أتباعي جميعا في العالم أن يعرفوا هذه البشارة. سأسجل خطبة متلفزة. وعلى الناس أن ترى علامة الدولة الإيمانية الكونية. فهمت. أنت إشارة من الله. علامته بأنبي نبيه في هذا الزمن. لقد خص كل واحد من أنبيائه بمعجزة. وإنك معجزتي منه. (كان يفكر في عصا موسى وعجائبها المعجزة).

غاب الزعيم في نوبة صراخ وبكاء وعويل إلى أن فقد الوعي. تأملت وجهه المرتخي وقد عادت ملامحه إلى سابق صورتها. مسكين!! مساكين هؤلاء البشر. في قوتهم وضعفهم مساكين.

فعلت الرقاقة الإلكترونية الخاصة بالمعلومات العاجلة الخاصة بهذه الحالة. على الجانب الأيسر من صدره العاري، لمست بطرف سبابتي المزودة بالطاقة العالية مكان قلبه فانتفض. فتح عينيه ولم يذكر شيئا مما حدث. قام عانقني وبكى من جديد. كان نشيجه حادا مختنقا ثم هدأ شيئا فشيئا.

التقطت بعض الورق من العلة القريية من السرير مكتوب عليها بالإنجليزية مادئين أميركا.

وأنا أمسح وجهه من الدموع والعرق، كانت عيناه لا ترحان وجهي، تتسلقانه مثل عيني طفل بشري بين ذراعي أمه.

فجأة. رن هاتفه الموصول إلى شاشة كبيرة، لم يشغل الشاشة. انتحى جانبا واستدار بكل عريه مكتفيا فقط بالرد الصوتي. كان حديثا مختصرا يوصله بأحد قادة المعارك المرابطين في الجبهة.

- سيدي أمير المؤمنين لقد انتصرنا بحمد الله ودخلنا مدينة «البكرة». بشرى لكم يا سيدي

- الحمد لله.. الحمد لله

- أوامرك سيدي ماذا نفعل بالكفار الذين فيها.

- اقطعوا رؤوسهم جميعا وحملوها في شاحنة واتوا بها..

سأصلي عليها بنفسي صلاة جهنم. لا تتركوا بيتا

واحدا من بيوتهم دون أخذ أرزاقكم منها. إنها حلال

عليكم. وتعرفون البقية.

ثم قطع الاتصال.

للحظة بدا وجه الزعيم مختلفا تكسوه علامات القسوة

ونشوة الانتصار.

- وجه خير أنت يا ماناول الله يا ملاك الجنة وجه
خير.. أنا متأكد أنك مرسلة من الله يا منالي. لم
يأتني خبر مثل هذا من قبل.. إنك العلامة على أنني
سأنتصر وأفتح العالم كله، وأعيد للدولة الإيمانية
مجدها.

- لم تسألني من أنا يا زعيم؟

- اطلعت على ملفك الشخصي نزلت من مدينة
بواتيني.. أليست هذه إشارة ربانية واضحة. لا بد
أنها علامة أنني سأعيد فتح الأندلس من حيث انكسر
جيش عبد الرحمن الغافقي في رمضان 114سأفتح
أوروبا قاطبة وأقطع رؤوسهم جميعا بإذن الله وعونه.
سأجعل شارل مارتل يتقلب في نار جهنم.

- باركيني باركيني.. يا معجزة الله لي! كان يجهدش
وهو يدس رأسه في صدري. كان خائفا من شيء لا
يدريه. مسكين..!!

- أرجو منك أن تكلمي الله.. قولي له أن ينصرتي..
كلميه رجاءً.. صلّي عليّ واستغفري لي فأنت من
الملائكة. من حملة العرش. أنت قريبة من الله..

وانقضت تلك الليلة. ليلة طويلة لم يستنفذ الزعيم خلالها
شيئا من طاقته الجنسية والعاطفية. فقد نام بعمق منهكا، رأسه

فوق صدري بينما يحيط جسدي بذراعيه وفخذييه. يرتجف بين الفينة والأخرى وهو يهذي بكلمتين لا غير: (ملاك.. معجزة.. عذراء. حور العين) قبل أن يغط في نوم عميق من جديد.

كانت الشمس قد تسللت قوية من بين مفاصل الأستار الثقيلة حين قررتُ أن أترك الغرفة

(ستعرف البشرية بعد زمن طويل جدا ما أقوم به في هذه اللحظة من أجل سلامة مصيرها. مصيرها المهدد. هذا إن لم أغير رأبي وأراجع عن التضحية.. من يدري؟ أعرف أنني بإقدامي على هذا الأمر، سأفقد جزءا من طبيعتي كمُبدعٍ آلي، يتحرك وفق عمليات حسابية دقيقة لا يأتيها الخطأ، وتنقص قليلا إمكانياتي الخارقة وقدراتي المطلقة. لكن في الأفق أحداثا خطيرة قد تجعلني أعيد النظر في أمر تطبيق الفكرة.)

توقيع مانويلا - ماناول الله

مفكرة من كتاب أبد الآباد.

- لست متعبة. وكيف لمثلي أن يتعب.

كل شيء حدث بسرعة. هزيمة جيوش الدولة الإيمانية في الشرق. هروب الزعيم واختبائه في مكان آمن ومجهول لا يعرفه غيري، بعد أن انتشرت بين قواته وثيقة قراره الاستراتيجي بالانسحاب التكتيكي لعودة قوية. وصلتُ إلى مدينة بجنوب الجزائر رفقة ستة من الرجال المقربين جدا من الزعيم. كانت ممرا ضروريا لهم لينتقلوا نحو الشمال. قضوا يومين بالمدينة البحرية «مستغانم» لأمر لا بد أن تظل سرية للغاية. غادر كل واحد من الستة بسهولة، وبأوراق مزيفة نحو اتجاهات مختلفة، تتوزع بين إفريقيا وسيريلانكا والفلبين وأندونيسيا. أما وجهتي فكانت مختلفة.

توقيع: مانويلا - ماناول الله

يا ملاكي..

أخبريني بما تقوله السماء!!

دون قصد إيدائهن، أجر أذيال ثوبي الأزرق المتراقصة
نهاياته بالدانتيل الأبيض الرقيق الشفاف. تتبعني نظرات نساء
الخيمة الزرقاء. عادة ما أرتديه في حضرة الزعيم.

.. وحين أمر بهن:

- لا أظن أنها تبادلته الحب مثلنا يا خديجة.. أنظري إنها

باردة مثل الزجاج.. تمس «نضرة» وهي ترضع

وليدها البردادي بن البردادي

- ولكنه يفضلها عنا ابن الكلب!.. ترد خديجة

موشوشة وهي تضع حلمتها في فم رضيعها.

البردادي بن البردادي..

لكن الخليفة في تلك الليلة الأخيرة التي قضيت جزءا منها

في حضنه بالخيمة الزرقاء الباذخة. كان حزيننا إثر شعور

غريب انتابه، يطلق عليه البشر «لوعة الفراق». عيناه

تغوررقان من حين لآخر بالدموع. ثم بصوت مزجر حازم

يأمر رجاله في الهاتف بغرس ما لديهم من الألغام والقنابل

الموقوتة في كل مكان قبل تركهم له أو مروهم به، ويأمرهم

بقتل وحرق وتفجير كل ما ومن يجدونه في طريقهم. يرد

أمامي على مكالماته العسكرية دون حرج، يحاول أن يقنعهم أن هزيمة جيوشه ليست بنهاية إنما ظرف مؤقت. يجتم كل أحاديثه بصوت به شيء من التفاؤل المبالغ فيه، ملتفتا نحوي:

- إن الله وملائكته معنا.. إن الله وملائكته معنا. الله أكبر.

لن يعلم بأنني لست ملاكا أنزلي الله إليه كما يعتقد، ولا معجزته وسرا بينه وبين ربه، لأنه فضله واختاره كنبى لهذا العصر. كما لن يعلم أنني امرأة آلية، أقرأ دواخله المنهزمة الضائعة والمكابرة التي لا يهدئ من روعها سوى حديثي له عن العالم الآخر. ينسى كل أوجاعه ويشهق كلما وصفته له كما أشاهده على صفحة مخيلته. فقد قرأ أوصافه بنفسه من سنين طويلة في كتب التراث وكتب التفسير. من غيري له هذا العقل كي يحدثه في الفقه والتاريخ وأن يجيبه كما أجيبه عن أسئلة الموت، والفناء، والكون، والكواكب، النجوم، والأقمار وأعمارها، وأسرارها وحركاتها وحياتها وموتها. من؟ البردادي يكاد يفقد عقله عندما أحدثه عن الجنة ومتعها. كل هذا في كفة، أما الحديث الذي يأسره ويذهب بعقله هو عن الحوريات الأبقار اللواتي تتجدد عذريتهن كل حين مثلي..:

- أنسيت يا محبوب الله.. نحن الحوريات لسنا مثل
نساء البشر. عذريتنا في تجدد أبدي.
يسهو قليلا. يضيع في خياله اللذيذ. صامتا يحملق في
وجهي، ثم فجأة يرتفع صوته بالتكبير.

لا نجم يشبه آخر ولا كوكب يشبه آخر
ولا بشر يشبه آخر

وإنه آخر ما كان يجب أن تقوم به. علامة السكينة على مانويلا تبدو الآن. أو بالكاد. ينعكس ذلك على ملاحظتها. البارحة فقط وصلتُ إلى هذا البيت. بيت هادئ. أو يبدو كذلك. إنه آخر ما تبقى من الأملاك العديدة للسيدة «حدة آل ميمون». إنه الوحيد الذي لم تبعه. استبقته لنفسها بمزرعتها النائية في ضواحي مدينة «المرية» الواقعة بين مدينتي غرناطة ومرسية. من شاطئها في ظلمة الليل، يمكن للرئيسي الواقف عنده، أن يلمح في البعيد هالة من الأضواء. كشكل تاج على رأس الأفق البعيد. ماهي إلا أنوار المصابيح، تتلألأ هناك في مدينة وهران ومدن أخرى تقع في الطرف الآخر خلف الماء. هناك على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. البارحة فقط وصلتُ من مدينة «برداد» مرجل الشرق الأوسط المشتعل.. على الرغم من الظروف القاهرة التي مرت بها تلك المنطقة من الكرة الأرضية، إلا أن مانويلا أقتت بدقّة آلة حاسبة متطورة معقدة، تاريخ خروجها من مدينة «برداد» الدامية، التي تغرق في حرب تشارك فيها أطراف متعددة من أطراف الكرة الأرضية. لم يمانع الزعيم الخليفة البردادي في

قبول اقتراحها. كان ذلك منتظرا. الجميع يعرف سطوة جمال هذه المرأة الغربية على الزعيم. ويرددون ذلك في سرهم، لكن ألسنتهم الحذرة لا تفضي به سوى لأسنانهم فقط، حفاظا على بقاء الرؤوس فوق الأجساد. يشيع الزعيم أنها ملاك أرسله الله من السماء معجزة له. هدية له وجزاء.

- .. مانويلا.. نيل من الله وعطاء منه. مانويلا أي

«ماناول الله».. هكذا يفسر البردادي

لا يرفض أبدا أي طلب لها، ولا يناقشها في أي اقتراح. كيف للعاشق أن يناقش معشوقته في ما تهوى؟ حتى لو كان هذا العاشق هو نفسه ذلك الذي لا يهاب شيئا، ولا تؤذيهِ رؤية الرؤوس المقطوعة، بل لا تحرك فيه شيئا سوى إحساس غريب بحرارة لذيدة تحتاج جسده. يفسره بأنه وقع عين الله عليه ولمسة يده التي هي علامة على رضاه وهو يراه يستमित في إفناء أعدائه وأعداء الله من الكفار والمشركين. يقف منتصبا، ينظر ببرودة إلى كومة تلك الرؤوس المقطوعة وقد وضعت أمامه على الأرض كما اتفق. وقد استقرت كل واحدة منها مقلوبة أو مائلة على جهة ما فيها. يقترب. يقرفص قريبا منها. يحدق في عيونها المطفئة، وملاحظها الغربية، الملطخة بسواد سوائلها وقد مرغت في التراب. يطيل النظر إليها بلذة قصوى. ثم كالعادة يصرّ أن يصلي عليها وحده

«صلاة جهنم» كما يسميها. كل مرة يقف ليكبر أمام كومة منها، سواء تلك التي يقطعها بيده، أو التي يأتي بها رجال من جنوده من مناطق المواجهات الساخنة، مكدسة في عربة مكشوفة السقف تطوي عجلاتها منحرجات الطريق المخربة المحفرة، تتقاذف الواحدة فوق الأخرى دون أجسادها التي ألقى بها في أماكن بعيدة. ولأنهم يعرفون أن ذلك يسره ويشعره بأنه على أهبة الانتصار والمرور إلى مرحلة متقدمة من حربه الدائمة، فإنهم حال وصولهم، يفرغون العربة منها، ثم يكدسونها قرب خيمته الزرقاء الباذخة، سيكون له وحده الشرف بإرسال أرواحها إلى جهنم عبر صلاته، «صلاة جهنم».

هم يعرفون كيف ينالون رضاه. أما البردادي فليس بعزيز عليه سوى رضا معشوقته مانويلا أو «ماناول الله». الملاك أو حور العين التي نزلت من حيث لا يعلم أحد ولا يدري الناس.

- طيب وماذا بعد؟ تفكر مانويلا وهي تبتسم بخبث.. إنها خاصية التناقض في الكائن البشري!. ذاك أمر وذاك أمر. جنون العشق شيء وعنف الجنون شيء آخر. قد يلتقيان. قد يتعايشان حتى في خطر الموت. ما ذنب البردادي؟ إنها جينات جده الأول، الفارس

الشاعر عنتره بن شداد الذي تذكر حبيته، وهو في
خضم المعركة بين الموت والحياة. حتى أنه أخبر
الأجيال من بعده ولقرون طويلة أنه حاول أن يقبل
ثغرها وهو ينزف دما بين الرماح والسيوف اللامعة
بالموت؟

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَّاحُ نَوَاهِلُ -
مِنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي

فَوَدَدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا
- لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ

لا لوم على البردادي إن ضعف في عشقه لملاكه من
جهة، وتجبر في عنفه حيال العالم من جهة أخرى.. ماذنبه؟
إنها جيناثم هكذا. طبيعة الآدمين هكذا. دواخلهم سرية
ومتضاربة ومتناقضة وغامضة هكذا.. حتى أن واحدا آخر
منهم، لم يكن من الجزيرة العربية. ولا علاقة له بشاعرهم
عنتره بن عمرو بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن
ربيعه بن عوذ بن مالك بن غالب بن قطيعة العبسي، بل إنه
من بقعة أخرى مختلفة من هذه الكرة الأرضية. إنه من فيينا
النمساوية، كان عالما فيهم يدعى سيغموند فرويد. لم يكن
سويا في نظرهم، ولم يكن حكيما بما يكفي في نظرهم أيضا.

لقد دعاهم للتحديق في عاهاتهم عبر اكتشافاته ونظريته في التحليل النفسي، وجعل الكثير منهم يؤمنون بأن الجنس مركز جميع تصرفات المخلوق البشري الخلاقة منها والهدامة. الجنس أصل الجرائم بكل أنواعها والحروب بكل أهوالها. إذاً فما ذنب البردادي في كل هذا، إن هو عشق مانويلا حد الجنون تماماً كما يعشق قهلم العالم بكل جنون أيضاً.؟

فصل الغرام في القلوب والأرحام..

لا شيء يتطلب السرعة الآن. مانويلا تعرف بالضبط كم ستظل في مزرعة السيدة حدة آل ميمون للإشراف على المهمة التي جاءت من أجلها.

حين قررت أن تلجأ إلى المريّة، لم تودع نسوة «ملحقات» خيمة البردادي الزرقاء الباذخة، اللواتي لا يعلمن بعد شيئاً عن مصيرهن ولا عن مصير أطفالهن الكثير. ولم تودع نساء «مركز فرز السبايا» أيضاً. لم يعلم أحد برحيلها ما عدا الإنسانية الأقرب إليها «السيدة حدة آل ميمون» التي سلمتها مفاتيح بيتها بينما كانت تنهياً لأيام أخرى وينتظرها مصير آخر..

فور وصولها بيت حدة، كانت حازمة في تنفيذ أحد أهم قراراتها عاجلاً.

لا بد من التخلص من الرحم. إنه عضو خطير في جسدها. لن ينسجم مع وجود القلب فيه. فإما الواحد أو الآخر. إنه لأمر ثقيل وخطأ فادح أن تعيش بهما معاً. عالم البشر يعاني من هذا الخطأ البيولوجي.

كانت قد أخذت قرارها وحان توقيت تنفيذه.

بين يديها جرة الزجاج المغلقة بإحكام، وداخلها ذلك الجسم اللزج، قطعة مجوفة لا هي مدورة ولا هي مثلثة، تسبح في سائل شفاف. ظلت لفترة تقلبها في كل اتجاه. تنظر إليها مليا وهي تحرك رأسها يمينا وشمالا. ما يقلقها هو ذلك الجسم متناهي الصغر مثل نقطة، جسم مجهري لا يمكن للعين البشرية أن تراه، يشتبك بنسيجه الداخلي. يلتصق بجدار الرحم، لا إمكانية لقوة يفصله عنه. إنها تدري أنه لن يتم تعديل طبيعته حتى لو أعيد إلى مخابر مركز كونسونس الذي يحتوي على الخارطة التفصيلية لجسدها.

على الرغم من ذكائها الاصطناعي، واستطاعتها التحكم في جميع مكونات جسدها، وقدرتها على التحكم في الترميم الذاتي. إلا أنها وقفت قلقة أمام تلك النقطة العالقة بالرحم. جسد مانويلا واحد من تلك الأجساد الآلية التجريبية محدودة العدد، التي تم تحريرها للعيش طليقة بين البشر العاديين، ولكن تلك النقطة اللامعة تقلقها، لأن عدد الأجساد الآلية لن يعود محدودا بل سيحتاج الكوكب جنس جديد مزيج بين البشري والآلي إذا ما تم تخصيص ولو واحدة منها.

قلق مانويلا لا يتلاشى بل يزداد حين تدرك أن تلك النقطة البراقة المتشبهة بالرحم ما هي إلا نطفة جنين لأنثى نصفها بشري والنصف الآخر آلي. إنها نتيجة تفاعل بشري-آلي لعلاقتها الجسدية في تلك الليلة الأخيرة التي قضتها في سرير الزعيم البردادي. سيحتاج الأرض جنس نصفه آلي ونصفه الآخر بشري من جينات البردادي.

قبل أن تهيل التراب على ذلك الجسم اللزج، جاءها الصوت يستجديها أن تصرف النظر عن الأمر:

- لماذا تريدن قتلي يا أمي. أليس من العدل أن تضحي بعضو القلب بدل الرحم:

- يكفيهم ما يعيشونه هؤلاء البشر المساكين.

- وما ذنبي.. وماذا يفيدك قلبك في عالم لا يهتمون فيه بالقلب كما يهتمون بالرحم؟

- أنت تعلمين أن العالم سينقلب رأساً على عقب إن أنت خرجت إليه. فإن كنت أنا قد صُنعت على شاكلة البشر، أشبههم بكمال تام، إلى درجة لا يستطيعون فيها أن يفرقوا بيّني وبينهم، فأنت ستخلقين بنصف إنسان، أنت مخلوق بشر-آلي.. إنها مصيبة. ستحدث كوارث لم ترها البشرية في تاريخ نفسها، وتقع أشياء لم ترها الأرض منذ تشكلها

قبل خمس عشرة مليار سنة بعد الانفجار العظيم.
يكفي ما حدث لحد الآن.

- لكن السيد إيلس وخبراء كونسيونس سوف لن يكونوا راضين على قرارك هذا ألا تخشين أن يتخذوا قرارا علميا بتدميرك.

- ليس خطئي، بل إنه خطأهم الأول أو بالأحرى دسيسة منهجية من إحدى العالمات بينهم. وقد اعترفوا بذلك أمامي. صناعتهم لمخلوق آلي برحم وقلب. يسلبه القدرة على مواجهة العواطف الآدمية. وسيقع ما لا يحمد عقباه إذا ما نجت حياة إثر علاقة جسدية بين ذكر من البشر وأنثى آلية. وأنا أخاف على مصير هؤلاء البشر. يكفيهم ما هم فيه..

- أنت تقعين في الحب بسبب دسيسة امرأة من البشر. فما ذنبي أنا أن أتحمل النتيجة. ثم إنك ستظلمين تقعين فيه بعد انتشالك الرحم بدل القلب.. ما ذنبي في كل ذلك؟

- نصف بشرو نصف آلة أنت، ستقعين في الحب مثلهم تماما وبطريقتهم البلهاء. لأنك مخلوق نبت في رحم وليس في مخبر التجارب العلمية مثلي أنا. وبولوجك الحياة مثلهم، سيبدأ منك عنصر جديد خطير سريع

الانتشار يجتمع في تركيبته العنف المطلق المختلط بالأحاسيس التي يطلقون عليها أسماء مثل الحب والتدين والشرف والقبلية و.. هي تؤدي جميعها في نهاية المطاف إلى العنف. أنا أعرفهم جيدا.

- وما الذي يزعجك في ذلك؟

- هذا شأن يتعلق بضميري كامرأة آلية. جبلت عليه.

هكذا أراده علماء مخابر كونسيونس. الضمير

يا صغيرتي.. الضمير!!

- لكنك تعلمين أن وجودي تحت التراب قد يشلني

لبضع مئات أو آلاف من السنين بحساب الزمن

البشري، إلا أنني سأهض وأنتعش من جديد عند

انشقاق الأرض، بحدوث زلزال، أو حدث

جيولوجي ما، وهو أمر لا يتحكم فيه أحد على

الأقل في العصور الحالية.

- أعرف.. ولكن البشرية الآن تعيش مفصلا عسيرا.

- ستفقدن نصف آلتك بانتشالك الرحم.. إنها خيانة

لفصيلة المخلوقات الآلية مثلك.

- للضرورة أحكام كما يقول البشر.

- أنت تخونين جنسك. أنت أم آلية أنانية. تفضلين

سلامة حياة البشر وتقيرين ابنة رحمك.

-

شجرة التوت

تنفستُ الفاتنة الصعداء، بعد أن سوّت بالمدّرة ذات
الأسنان الحديدية الحادة الترابَ الضاربَ لونه إلى الحمرة. ثم
تنهدت بعمق

- أيها التراب.. تراب هذا الكوكب المظلم.. إني
وهبتك جزءاً مني وأهديتك الرحم المضيء الذي هو
ليس منك، ولكنني أسلمه بين ذراتك أمانة إلى حين.
ولأنني آلة حرة مالكة لمصري ولست مبرمجة، هاأنا أسله
من جسدي الآلي وأغرسه فيك عن طواعية، درءاً لكارثة
بشرية ستقع لا محالة إن أنا تركته في مكانه. فإن أنا قررت
خلعه، فلكي لا يلد ولا يولد، ولا يتكاثر بسرعة لم تعرفها
المخلوقات المتناسلة على هذا الكوكب المظلم من قبل، ولا
يرتع ولا يفسد، فعِدي أنت من جهتك، أيها التراب، أن
تجعل منه شجرة توت يانعة، فرعها في الأرض وأغصانها في
السماء. ومن ثمارها دواء ناجعاً لكل من يمر من هنا، فيلمسها
أو يأكلها. ألا ترى أيها التراب.. البشرية تدب فوقك متعبة.
نفضت مانويلاً يديها الطريتين البضتين الناعمتين اللتين
لا قدرة للزمن، بحساب البشر، أن يغيرهما أو يؤذي بشرتهما،

أويشوب لوئهما الصافي، أويطئ من تدفق الحياة فيهما.
تحركت الأساور حولهما محدثة رنيناً محبباً وسط الصمت
الذي يعم المكان.

- هذه الأساور أحتفظ بها ذكرى من أمي.. أوصتني
أن أهبها لمن أحب. لا يمكن أن تكون بعدها إلا
ملاك. قال البردادي وهو يثبتهما حول معصمها قبل
أن يفترقا،

وبينما هو يحاول تأكيد ذلك بجمل متشابهة، جاهداً
لإقناعها بأنها كل ما ورثه عن أمه، وقيمته في ذكراها. كانت
مانويلا تعلم أنه يكذب. وأن الحقيقة كانت تراها على
صفحة أمامها. تشاهد جنوده وقد سلّوا الأساور من معصم
جثة أسيرة شابة، فائقة الجمال من مدينة الرقة، قبض عليها
من طرف "شرطة الله" وأُتهمت بأنها تتعمد الخروج من منزلها
بنقاب شفاف، لتسحر الناس وتفتنهم عن دينهم. فما هي إلا
ساعات حتى اختطففت، وبعد أن اغتصبت جاؤوا بها إلى
ساحة الإعدام. وجمعوا حولها الناس ليروا المشهد حتى ولو
كان ذلك غصبا عنهم. فالوقوف حتى نهايته واكتمال فصوله
الدرامية يجنبهم الشك في إيمانهم بالله والبردادي والمشروع
الكويني للدولة الإيمانية، بل ويجنبهم القتل المؤكد. قطعوا رأس
الفتاة الحسنة وقطعوا أوصالها، لاهين ضاحكين عابثين،

وبلدة منقطعة النظير. وفي صباح اليوم التالي، وكما تقتضي العادة، وضعوا رأسها رفقة الأساور عند قدم البردادي، أشار برأسه لأحدهم قبل أن يصلى عليها صلاة جهنم، يأمره أن ينظف الأساور من أثر الدماء ويوضعها في الدرج السفلي عند مدخل غرفته.

تداعب مانويلا الأساور التي تتشبث بمعصمها، تتحرك حوله: إنها من معدن الذهب، لا ينبت على الأشجار، بل نتيجة اصطدام عنيف بين نجمتي نوترون حدث منذ ملايين السنين، تكونت عنه حوالي عشرة أعمار من الذهب الخالص تدور في الفضاء، وما هذه التي حول معصمي سوى شذرات منها على الأرض.

تنصت مانويلا إلى ما ترسله مادة الذهب من موجات، تحمل كل ما كانت الفتاة القتيلة تراه وتسمعه وتشعر به منذ أن لبست تلك الأساور وحتى لحظة قطع ذراعها ثم ساعدها ثم يدها.

اللعنة.. كيف لآدمي أن يتحمل ارتدادات ما تفضي به. كيف لا يؤدي به ذلك إلى الجنون، أو إلى الانتحار؟

تنفض مانويلا يديها من التراب.. قطرات بلورية تتسلل من جسدها تسقط فوقه. حفرٌ عمق متر تحت الأرض ليس بالأمر اليسير على آدمي لكنه ليس عسيراً على الآلة. تسمع نباحاً خلف سور الحديقة وحركة خطوات سريعة، لا بد أنه أحد قاطنة المنطقة يتجول بصديقه الأليف. تدك بقدمها لتسوي ما تبقى من فم الحفرة التي لم يعد مفتوحاً، وقد ابتلع ذلك الجسم الحي الذي اجتثته من مكمنه في أعماق مكان من جسدها. لا فرق بين الأرض والرحم.

تصيخ مانويلا بسمعتها. آلاف من الأصوات الغاضبة الحادة الصارخة المستاءة تصلها عن بعد خمس ساعات ونصف بالحساب البشري الذي يفصل مدينة ألمرية عن ساحة باب الشمس ولا بلاتنا دي مايور بقلب مدريد، النابض بأصوات لنساء ورجال ينتفضون ضد الخطأ الذي خلقوا به وعليه. أصوات مخزّنة في ذرات بالهواء منذ أواخر القرن الماضي، تصل سمع مانويلا الخارق. نداءات تطالب حكام بلادهم بعدم السماح لطائرات أمريكا بالمرور فوق أجوائهم. إنهم يشعرون بالعار وهي تمر فوقهم متوجهة لقصف بشر

مثلهم في العراق. إنه أعنى ما لديهم من قوة. ما يمكن الضغط به على حكامهم لعلهم يستجيبون. تتعد هتافاتهم قليلا قليلا.. نخبو.

تمرر مانويلا أسنان المذراة فوق الحفرة بهدوء، تسمع صوتا آخر ذا حشرجة غريبة لا يبدو بعيد. اعتلت قطعة مدورة من بقايا جذع شجرة صنوبر، ثم اشرأبت بعنقها لتنظر خلف السور. كما تجلت صورته تماما قبل أن تراه بالعين المجردة. رجل يمر باكيا.

ظلت ترقبه حتى اختفى. وقبل أن تنزل من على الجذع شاهدت كلبا أحمر اللون فاقعه، يجري مسرعا رافعا رأسه، له هدف معين لن يحيد عنه. صوت بكاء الرجل مازال يتردد في أذنيها:

- ما به؟ من أي زمن جاء بالضبط؟

انتبهت مانويلا أنها لأول مرة تطرح سؤالا من هذا القبيل.. هل هو اليقين على أنها فقدت للتو جزءا من دقتها الآلية وسرعتها التي تحترق مختلف الأزمان.. لا بد أن غياب الرحم أربك مؤقتا استجابة الرقاقات الإلكترونية. عليها أن تعيد تحفيزها وضبطها وبسرعة.

لا شيء يشوب الرؤية الآن.. تتوالى حركة الأحداث القادمة أمامها.. هذه الليلة عند الثالثة صباحا سيشم ثلاثة

كلاب من القرية رائحة الرحم المدفون هنا.. سيتدافعون لرغبة نهمه. إن فعلوا ذلك فإن النطفة البشر-آلية ستتحرر. سيكون الأمر أخطر لو أنها تستقر في بطن أنثى من كلاب القرية. ستجتمع المكونات الثلاثة في المخلوق الذي سينمو داخله، الآلي والبشري والحيواني. من حسن الحظ أنها رأت ذلك عن سبق الزمن. أي وجه سيمسي عليه العالم هذا، لو أنها لم تفتن لذلك؟ اللعنة..

ودون تردد وبسرعة أعادت مانويلا الحفر. أخرجت الرحم ثم وضعت من جديد في الجرة الزجاجية ملوثا بالتراب وأغلقتها بإحكام.

لم ترتح مانويلا تلك الليلة. أحيانا تحتاج إلى بضع غفوات قصيرة لكي تتجدد قدرات الرقائق الإلكترونية. ظلت عيناها مفتوحتين تبحلقان في سقف الغرفة الخشبي. تتسلى بتفكيك أصوات تصلها واضحة طازجة بعد أن ظلت مطوية ومحفوظة بين لفافات الفضاء لقرون عديدة. تغلغل إليها، تفكك لغاتها ولهجاتها المختلفة، منها التي تغيرت ومنها التي اندثرت نهائيا. أقوال وأشعار وأغان وتلاوات وأحاديث وصلوات وابتهالات ودعاء وخوف وصراخ رعب ورجاء وبكاء وصياح.. تهز مانويلا رأسها.

- لم تكن حياة البشر هادئة أبدا.

من حين لآخر تلتفت نحو الجرة الزجاجية القابعة قرب السرير فوق الخزانة العتيقة تحتوي على ذلك الشيء. له عينان. ينظران إليها بشزر. يهدداها حيناً، ويلومانهما ويستجديانهما أحياناً. تعرف ما يريد ذلك الشيء أن يفضي به إليها. لكنها لا تريد جدلاً. لا وقت لذلك، فوراءها مهام كثيرة وخطيرة تنتظرها.

تستعيد حوار المخترع السيد إيلس مع عالمة اسيان:

- الرحم والقلب معا في جسد آلي.. إنه أمر معقد.
- الرحم هو القلب الثاني لكل أنثى يا سيدي..! ترد
- العالمة اليابانية سيان تدافع عن الإجراء الذي قامت به.

إذن فالذكر ناقص رحم. الذكور مثل البردادي.. وحيدو القلب!! تبتسم مانويلا بلؤم. لم تكن تسخر وإن فلتت من بين أسنانها ضحكة خفيفة، بل كانت تتخيل سلسلة الأجيال القادمة من البشر- آيين، ستكون أجساد ذكورهم بأرحام.

تلمس مانويلا بأصابعها مكانه القدم. تجس الخواء الذي تركه غيابه في جسدها. تشعر بحالة خفة. تشبه من تخلص من الجاذبية.

بواتبي... يا بواتبي

حملت مانويلا الفأس بيد وبالأخرى المذراة القديمة ذات الأسنان الحادة غير المستوية. لم تلتفت بعد أن تركت المكان، كانت تدرك أنها حالما أدارت ظهرها مغادرة، فإن شجرة توت خلفها قد طالت وتفرعت فجأة، ورمت بأغصانها المثقلة بشمار التوت الحمراء البراقة والكثيفة والسخية على كتف السور المحاذي لها والمحيط بالحديقة. إنها في متناول يد وذراع كل من يمر بها.

توجهت مانويلا بهدوء وببطء نحو البيت المنزوي هناك، يقبع وحيدا منعزلا خلف أشجار الحديقة الكبيرة، يلوح قرميد القدم الأحمر وتظهر نوافذه المغلقة من بعيد. بيت رَمِّم العديد من المرات وفي حقب مختلفة. بمنطقة عاشت أحداثا لم تكن عابرة في التاريخ البشري. كما أخبرتها وبكل فخر السيدة «نيكول بوكاج». وجدتها في انتظارها عند وصولها إلى مدينة المريسة ثم رافقتها حتى الضاحية حيث تقع مزرعة السيدة حدة آل ميمون. نيكول بوكاج صديقة قديمة للسيدة حدة آل ميمون. تسأل عن أخبارها بجرارة. لم ترها منذ زمن طويل. تقاطع

طريقاهما. افترقتا بعد زواج نيكول وسفرها إلى الخارج لطبيعة
وظيفة زوجها.

- إيبسه.. مر زمن طويل.. كم كبرنا..!! تقول نيكول
بابتسامة تغرق في تجاعيدها التي تفضي بالكثير..

كم هي جميلة صداقة الطفولة بين الأدميين. لعلها من
الأشياء الإيجابية النادرة التي يملكونها.

لم تتردد نيكول ولم تطرح أسئلة. حالما بعثت حدة إليها
برسالة شفوية عن طريق أحد العمال الموسمين المغاربة الذين
التحقوا بتنظيم البردادي السري منذ سنوات، وما فتؤوا
يقومون بتوسيع رقعته بين شعوب المغرب الكبير، توصيها فيها
ببيتها ومزرعتها، لم تبطئ نيكول في الاستجابة لطلب صديقة
طفولتها.. حتى أنها تنقلت من مدينة بواتي بجنوب غرب
فرنسا إلى ضواحي ألمرية وقطعت مسافة ما يقارب الألف
وخمسمائة كلم عن طيب خاطر على الرغم من سنها المتقدم.
صداقة الطفولة وذكرياتهما تعيد الشباب إلى الروح والجسد.
حقا إنها نقطة تحسب للبشر.

نيكول تبدو سيدة غريبة الأطوار، تحاول جاهدة إخفاء
مزاجها العصبي، إلا أنها لم تقصر في مساعدة مانويلا أبدا
فور وصولها. على الرغم من أنها لا تعرف عنها شيئا سوى

كوفها صديقة جديدة وحميمة لحدة آل ميمون.

من أين لنيكول التي تعانقها بجرارة، تبحث فيها عن رائحة صديقتها حدة آل ميمون والزمن الخالي، أن تعلم بأن هذه المانويلا تم تهريبها من قصر الخليفة البردادي الذي عينه الطامعة على مدينتها العزيزة «بواتيي». وقبل أن يشد الرحال نحو مكان مجهول ويختفي. أمر بترحيل أقرب أبنائه إليه «البردادي» أو «مختار» الذي تجاوز العشر بخمس سنوات، نحو مدينة بأقصى الجنوب في الجزائر، أوصى بتركه في حماية مريديه الذين يعدون بمئات الآلاف هناك إلى حين، في مكان آمن دهم عليه، ليواصل تدريباته على يد «الإخوة». على أن يلتحق الرجل الصغير بأقرانه في المخيمات السرية في مدينة بواتيي. لأن مهمة تاريخية مقدسة في انتظاره.

كانت نيكول تنظر إلى حقائب مانويلا بفضول. لم تكن تدري أنها مملوءة بالذهب والمال ودفاتر الشيكات والوثائق السرية. نيكول مجرد بشر من أين لها أن تدرك بأن مرور مانويلا بالمرية وبقاءها بها عابران. وأن وجهتها الأخيرة ستكون نحو مدينة بواتيي حيث يهيء الخليفة لأمر عظيم!

الشاهد الآخر "سكراط"

حتى هذه اللحظة فالأمور تسير كما يجب، إلا أنني مازلت أهتم كثيرا بدواخل السيدة نيكول المتناقضة والمرتبكة. حالة لا يخفيها ترحيها الحار ولا ابتساماتها التي تحاول أن تلبس بها قناع الودّ. إنها لا تثق بي. معها حق.

صحيح أنها جددت أثاث البيت بكل وسائل الراحة الحديثة جدا، بما يسهل لي الحياة اليومية، تماما كما أوصتها بذلك حدة آل ميمون ولكنها لم تنتظر ضيفة مثلي. الأسئلة عني تلاحق رأسها المثقل.

على أية حال أعلم أنها توصلت بمبلغ مالي كبير جاءها من الأموال التي تتدفق مثل البحر في خزائن الخليفة، آتية من جهات عديدة في العالم، وحنة ميمون تدير جانبا منها.

لكن الحق يقال فإن نيكول لم تكذب ولم تخن وعدها حيال صديقة طفولتها، فجهودها واضحة في نقل وسائل الراحة ولوازم الحياة العصرية إلى هذا المكان البعيد عن العيون والامن من الشكوك كما تصفه.

زياراتها لي قليلة وقصيرة. تأتي في الصباح عادة رفقة كلبها «سكراط» الذي لا يتركها لحظة واحدة. في الزيارة

الأخيرة قدمت رفقة رجل ببذلة وردية وربطة فراشة صفراء تشد عنقه، ملامح وجهه أقرب إلى البلاهة تختفي تحت قبعة من نوع «بناما مونتي كريستي». إنه ابنها البكر في الأربعينيات من عمره، أنجبته وهي لم تتجاوز بعد العشرينات. قدمته لي، بجرارة أمّ محبة ومعجبة. ولا بأس إن هي بالغت في إرضاء نفسها من خلال مدح ابنها:

- ابني هيغو.. كاتب مهم ومشهور يبيع كل سنة مئات الآلاف من نسخ رواياته الرائعة. تقول بفخر وهي تشير إليه باسمه.

- إنه الوحيد من أبنائي الذين تفرقوا، لم يتركني بل فضل العيش معي في هذا المكان البعيد عن الضوضاء!

حالما رأيته هوغو أحنى رأسه احتراما، بعد أن أزاح يده القبعة الأنيقة من على رأسه لحظات ثم أعادها. فتش في جيوبه بحركة قلق، وبعد أن أخرج دواخل كل جيوبه الوردية، سلّ أخيرا من جيب سترته بطاقة صغيرة عليها عناوينه الالكترونية كلها ورقم هاتفه، مدها لي بحركة أنيقة. أخذتها منه شاكرة فانحني مرة أخرى وهو يقول في لغة فرنسية منتقاة.

- لم أكن أتصور أن تكوني بهذا الجمال الساحر.. خادمك هيغو بوكاج!! كان الكاتب صادقا.

غير بعيد تقف محجوبة ترأب كل صغيرة وكبيرة بعينين همتين. لا ترمشان إلا نادرا. محجوبة البكماء، أو - تدعي أنها كذلك- فليكن. لا يمكن أن تراها كلية إذا ما بحثت عن مكان وقوفها. دائما خلف شيء ما لا يظهر منها سوى رأسها مثل قط خائف. الاختباء وراء سور أو كرسي أو باب أو طاولة يشعرها بالراحة.

- فليكن.

فتاة في مقتبل العمر جيء بها عن طواعية من مدينة «سيدي سليمان» استقدمتها نيكول من المغرب لخدمتي. محجوبة تبدو مرتاحة في وضعها الجديد، جاءت من بيت عائلة فقيرة، تعمل مقابل مبلغ معتبر ترسله نيكول لأسرتها كل شهر.

لم تطرح نيكول عليّ الأسئلة التي أراها أمامي تتزاحم على طرف لسانها. تتصرف بحكمة وكأنها على دراية بكل شيء.

صموتة جدا هذه النيكول أحيانا إلى حد الملل، وثرثرة جدا أحيانا أخرى. قلقة أحيانا وهادئة أخرى. متميزة السيدة نيكول هذه وأنيقة في لباسها وحركاتها وطريقة جلوسها وذكية في سلاسة تعاملها مع الآخر. إنها على دراية عميقة بطرق التعامل الدبلوماسي، تدرت عليها وعاشتها طويلا إلى

أن أصبحت طبيعة ثانية لها. إنها ثمار الزمن الطويل الذي رافقت أثناءه زوجها القنصل السابق في عواصم دول عربية وغربية موسيو «جون بوكاج». على الرغم من تقاعده إلا أنه مازال على عادة التنقل والغياب عن منزله أغلب أيام الأسبوع، منشغلا بمهامه التي لا تنتهي. تدعو إلى الشك. مهمات سرية مخبرانية. على أية حال لم أبصر لحد الساعة ظله أبدا خلال زيارته القليلة المتباعدة التي تخبرني عنها نيكول دون تفاصيل، إلا من خلال بعض الأخبار القليلة المتقطعة التي تجيء في سياق الكلام عندما تزورني كالعادة خلال الصباح. على أية حال سأقرأ حقيقته حالما أراه. إن امتد به العمر ولم تمتد إليه أيديهم.

- هذا جبن عتيق ممتاز أتى به جون من نورمانديا يوم السبت وسافر مساء الأحد. تفضلي مانويلا جئت لك بقطعة منه لتذوقه.
- الحق يقال فإن نيكول على الرغم من غموضها إلا أنها تبدو مهمة جدا بي وتُظهر طبيعة سخية، حتى ملامح وجهها التي بدأت التجاعيد تعضّ عليه بقوة تزيدها رقة، وهي تباشرني بالحديث.
- يالك من امرأة جميلة جدا. وذكيرة ومثقفة..
ليحفظك الرب.

كل مرة قبل أن تغادر نيكول رفقة سكرات وهينغو، تشير إلى مكان إقامتها الذي يلوح من بعيد. خلف سور مزرعة حدة آل ميمون، طريق ضيق وسط العشب، يوصل إلى بناية عالية قديمة من الحجر الضخم تشبه كنيسة عتيقة مهجورة. تشير إليه من بعيد بسبابتها، ثم تخبرني وهي تنهد، بأنه قطعة حية من التاريخ. أعادت ترميم جزء مما تبقى من مناستير نسوي قدم منعزل يعود إلى عهد «أليينور داكيتان» ملكة فرنسا ثم إنجلترا، التي عاشت في بواتي في القرن الثاني عشر. بنته في هذا الركن القريب من الله. يجيئه الزوار كل صائفة.

تجنبت نيكول أن تخبرني أنها تقيم مساء السبت من كل شهر حفلة كبيرة في الطابق السفلي من البناية، يحضرها معارفها صحبة أفراد أسرهم، وأصدقائها القدامى وأغلبهم من كبار الدبلوماسيين المتقاعدين، يأتون المكان بسيارات فارهة وأثواب أنيقة بصحبتهم أربعة نُدل من عمال أوتيل إنويفو توريلوث، يحملون في عربتهم علبا من الطعام الجاهز الساخن الشهي، ومشروبات وحلوى وهدايا وكل لوازم سهرة باذخة. تغني فيها فرق أغلبهم من كبار السن والمتقاعدين، أغان قديمة وأناشيد دينية على أنغام آلة الأورغ.

تضيف مع ضحكة خفيفة:

- سكراط يلتصق بسريري طوال الليل، يبدو أنه يخاف من أصوات الأرواح التي تجلجل كلما جن جنون الليل. أما أنا فأقوم وأرحب بها وأشعل الشموع. ترتعد محجوبة البكماء بقوة عند سماعها كلمة «جن» وتبصق عدة مرات بين ثدييها بعد أن ترفع الثوب قليلا عن صدرها.

ولأن من طبع البشر إطالة الحديث في ما يجبون وعمما يعشقون، فإن نيكول ابنة بواتي لا تبدو فخورة سوى بمديتها وتاريخها، وتتوق إلى الإسهاب في وصفها، فتزداد رقة صوتها المتهدج كلما تطرقت بفخر مبالغ فيه إلى تاريخ تمدن بواتي الذي بدأ مبكرا بالنسبة لبقية المدن، وسبقها في غرس خطوط السكك الحديدية منها وإليها عبر محطة جميلة وسط المدينة القديمة، وانفتاحها على العالم منذ أواسط القرن السابع عشر، وفخورة بجامعتها التي شيدت سنة 1431 على يد شارل السابع.. في كل مناسبة يحلو لنيكول عرض معرفتها العميقة بتاريخ المنطقة. تسعل نيكول وتتنهد بقوة حين تروي الأخبار الحزينة عن الحروب الطاحنة التي عرفتها هذه الأراضي، وأهوال حرب المائة عام، والقصف الذي تعرضت

له واعتداء الحلفاء، وتدميرهم لوسط بواتي الجميل ومحطة
القطار التي كانت زهو البواتيين.

أفكر في حدة آل ميمون صديقة طفولتها التي تحلم بعودة
زمن الأندلس، حين لا تخفي نيكول تقديسها وتعظيمها
لـ «شارل مارتل» الذي قضى على عبد الرحمن أمير قرطبة،
وتصفه بالمتوحش الذي جعل جنوده ينهبون بواتي ويهمون
بالتوجه نحو مدينة «تور».

هز نيكول رأسها يميناً وشمالاً أسفا قائلة:

- يا له من زمن عسير.. أحمد الرب أنني لم أعشه!!! ثم
تقوم برسم علامة الصليب.

يحلو الكلام لنيكول أكثر حين تأخذ فنجان القهوة بين
يديها الاثنتين. تذرره بكفيها، تنبض حوله عروقها الزرقاء
النافرة، تنظر إليه بحنان مثل عصفور حقيقي سقط من عشه.
أعرف أنها تتخيله كأنه قلبها الصغير الذي تجاوز السبعين ثم
تحدث في الموضوع الأثير لديها، تبدأه دوماً بالتحسر على
الحاضر:

- لم تعد الحياة جميلة كما كانت. تتهد نيكول بتأسف
شديد. أحوالها تزداد سوءاً يا ابنتي. خاصة بسبب
هؤلاء اللاجئين على قارتنا، يتدافعون نحونا من البر

والبحر والجو. من العرب والأترك والسود
والآسويين. ما الذي يمكننا تقديمه لهم. فليبلعهم
البحر بحق الرب. اللعنة إهم يتوالدون بسرعة. مدنا
وقرانا امتلأت بهم. ثم إن ليس لديهم نفس عاداتنا..
إهم.. إهم.. إهم...

تتوقف نيكول قليلا عن الحديث. تتنفس بعمق. أثير
عنوة موضوعا أثيرا على قلبها. تلتقط طرف الخيط فيجرها
بسرعة البرق نحو الماضي.

أضع خدي على كفي وأنصت بمتعة.

أحداث وأسماء نساء ورجال وملوك وملكات وأبطال
وحكايات عشق وخيانة وأماكن وتواريخ دقيقة وخيول
ملونة وتفصيل خوذات وووووو...

أنصت لصوتها ذي الحشرة. كم تبدو مبتهجة وهي
تصف تفوق «الجنرال مارتل» على عبد الرحمن أمير قرطبة في
كل شيء. كل شيء. وواقعة مقتله وانسحاب قواته
وسحقها، فتلبسه أروع صفات الشجاعة خلال حرب
بواتيني، قبل أن تمدح ابنه «شارل ماني» الذي تصفه ببطل
الأبطال الذي أنهى وجود العرب المحتلين في فرنسا. ثم توجه
حديثها إلى كلبها المسن «سكراط» الذي يقبع على قائمته
الخلفيتين لاهثا، لسانه يتدلى، شاخصا إلينا، يبدل نظره في

الاتجاهين بيننا وكأنه يفهم كل شيء. كان مثلي تماماً، في رحلة استكشافية لفهم فصيلة البشر:

- هيبببببب.. حدثت أهوال كثيرة يا عزيزي سكراط.. لم تكن لا أنت ولا مانويلا ولا أنا من هذا العالم. منذ عصور وهؤلاء الأجانب دائماً قدرنا التعيس..! ينبح سكراط مرة واحدة.

- نعم للبشر قدر تعيس..!! تقرأ نيكول تاريخها وأقرأ ماضيها القادم.. من الحكمة ألا تعلم عنه شيئاً. الآدميون غريبو الطباع.. تجمع بين حدة ونيكول روابط الطفولة المتينة وذكرياتهما الغزيرة، وتفرق بينهما أحداث التاريخ واختلاف المعتقد.

تغادر نيكول. أرافقها إلى الباب الخارجي. تسارع محجوبة إلى تنظيف الطاولة وإعادة ترتيب وسائد الأرائك. تتباطأ حركتها فجأة لتستمع جيداً لما أتمتمه:

- صدقت يا حدة.. إنه الماضي القادم. إنه مجرد مستقبلٍ ماضٍ يا سيدة نيكول بوكاج..

آآه.. يا محجووووبة

وصلتني رسالة مقتضبة «سيأتون غدا في الصباح الباكر».. عليّ أن أغفو قليلا لتتجدد رقائق الإلكترونيّة. يدلّهم الليل. يشتد سكونه، كلب ينبح في البعد. بكاء محجوبة يصل من غرفتها. من الطبيعي أن تشتاق لجارّهم «يزة». أعلم أنّها ليست بيكماء. سأترك لها هذا الترف الوحيد الذي تستطيع التمكن منه لإخفاء أسرارها ومخاوفها وكوابيسها وأوجاعها المزمّنة.

جارّهم المسنة يزة ملاذها. إنّها الوحيدة التي ترتاح لها. والوحيدة التي تمدّها بجناحها. فزوجات أبيها المتتاليات لم تكن واحدة منهنّ رحيمة بها. كلما أعاد الزواج بدأت رحلتها لمواجهة صنوف الإذلال الملونة من كل قادمة جديدة.

كم تغير شعور والدها نحوها. كان عطوفاً على ابنته الوحيدة وحنونا قبل أن تتوفى أمها بمرض عضال، دمرها بسرعة البرق وأسلمها لموت مباغت. لم يكن والدها قاسيا تجاهها حتى قدوم زوجته الأولى «خضرة» التي دخلت بيتهم بعد وفاة أمها بخمسة وأربعين يوما، كانت محجوبة آنذاك في السادسة عشرة من عمرها. لم يتقدم لخطبتها أحد من شباب

الأقارب ولا من أبناء الجيران. فمن سوء حظها أن الفتيات حولها كن أجمل وأشهى. تغير سلوك أبيها تجاهها. تغير جدا. صار يعنفها كلما استغلت خضرة «حديث الوسائد» ودست لها عنده أخبارا مفرضة.

- ابنتك لم تعد صغيرة. أصبحت تحيض.. إنها الآن امرأة بالغة.. كيفي كيفها..

يقلقني غيابها الطويل كلما أرسلتها للتبضع في السوق.. من يدري وربما ذهبت مع أحدهم لتمارس الجنس. أولاد الحرام كثيرون!

تدور عينا الرجل في محجريهما. يفقد صوابه. كأنه لم يتخيل من قبل أن ابنته أنثى وغير قابلة لممارسة الجنس. ينطلق نحوها مثل ثور اعمى. يهوي عليها بكل قواه ضربا بجزامه. يتجسد كلام خضرة صورا في مخيلته. يتخيل جسد محجوبة في تلك الوضعية المريبة فيضربه. يضره بقوة.

كلما انتهى من ضربه لها وخرج.. تقترب منها خضرة بخطى راقصة. ساخرة شامته.

كبر الحقد في صدر محجوبة. ظلت تتحين الفرص لتنتقم من زوجة أبيها التي ازدادت تبجحا وشراسة بعد أن أصبحت حامل في شهرها الثالث. ولأنها أضحت تتدلل كثيرا، فتدعي أنها بسبب الوحم لا تطيق أن تشم روائح الطبخ. تسبب لها

كل مرة الغثيان والقيء. تتدل. وبكامل التفتنج تترك محجوبة في الداخل لتقوم وحدها بكل واجباته. تتجه بدلال نحو الباحة التي تتوسط هذا البيت القلم المبني على الطريقة التقليدية. بغرف أرضية وتتوسطه باحة. إنه ليس ببعيد عن منزلهم القلم. انتقلوا إليه حديثاً، بسبب ثمن كرائه الرخيص. تذهب خضرة إلى الباحة وبين يديها كأس شاي تحتسيه بهدوء وراحة. تجلس تحت شجرة تين عظيمة تظلل بئرا قديمة مهجورة، عميقة جافة. في كل مرة يؤجل زوجها ردمها لضيق وقته.

في صباح ذلك اليوم الصيفي، وبينما كانت محجوبة تحصي الكدمات التي تركها والدها على جسدها قبل خروجه إلى عمله، بسبب أكاذيب جديدة ملفقة من وشاية زوجته له. شكواها من البنت سيئة الطباع. لم تعد تطيق كسلها وعنادها وغياها الطويل عن البيت خلال النهار وتصرفاتها السيئة. تؤمن محجوبة بأن خيال خضرة خصب في نسج الحكايات الخيالية والأكاذيب المغرضة..

كانت الكدمات مؤلمة بل موجعة جداً. لم تغفر محجوبة لخضرة هذه المرة. هذه المرة لم تكتف أن تتسلل إلى بيت الحاجة يزة غير البعيد من بيتهم لتشكو لها حالها وتمتحن منها القليل من الحنان. هذه المرة دارت فكرة مجنونة في رأسها. غضبٌ لا مثيل له يكتسحها..

ظلت تراقب زوجة أبيها عن بعد. نظراتها الشرسة النارية تتابع حركاتها وسكناتها وخطواتها. كالعادة توجهت خضرة إلى الباحة. جلست تحت شجرة التين على حافة البئر لترتشف كأس الشاي الساخن الذي يفوح منه عطر النعناع المنعش، وقد وضعت ساقا على ساق في ارتخاء راحة. ظلت محجوبة تراقبها من الخلف. كانت تتنفس بسرعة وعمق. لم تتردد. اقتربت منها بخطوات واثقة حذرة، ثم بخطى سريعة، وبكل قواها دفعت بها من الخلف إلى أعماق البئر. صرخة طويلة واحدة ثم صوت ارتطام قوي. ثم لاشيء. صمت وفراغ رهيبان سادا المكان. ومنذئذ ظل الصمت والفراغ يغطيان الحقيقة.

مسكينة خضرة.. مسكينة محجوبة.. مساكين هؤلاء

البشر.

- يااااه.. خضرة المسكينة سقطت في البئر.. ماتت وهي حامل في الشهر الثالث!! هكذا يردد الجميع منذ سنوات عديدة. إلا أنا والحاجة يزة التي بلغت من العمر عتيا. إنها مثلي تدري تفاصيل ما جرى. فهل سترحل وتأخذ معها السر؟

سنوات.. امتلأت الباحة بإخوة محجوبة الصغار من زوجتي أبيها الثانية والثالثة. ضاق البيت ونقص الخبز

والراحة. لم تكونا أرحم من خضرة ولكن الحاجة يزة لم ترد أن تتكرر حادثة أخرى قد لا تشبه حادثة البئر التي تم ردمها بعد الحادثة مباشرة، فاقترحت على أبيها أن يرسل بابنته البكر محجوبة إلى عائلة ثرية وثقة. تطمئنه بانها تعرف أصلها وفصلها جيدا. ثم ماذا.. فكثير من البنات في هذه لمدينة وفي المنطقة بأكملها، أصغر وأجمل منها يعملن في بيوت العائلات الثرية لمساعدة أهلهن.. تردّد أبوها قليلا. ظل مرتبكا إلى أن استشار زوجته الثالثة فلم تتردد لحظة بالموافقة بدافع رغبة التخلص من وجود محجوبة في البيت. أقنعتة لقبول اقتراح الحاجة يزة. وتأكيدها على أن الجارة العجوز الحكيمة لا تنوي سوى الخير لها ولهم..

- ستأكل محجوبة طعاما أفضل من طعامنا، وتشرب ماء أصفى من مائنا وتلبس أحسن مما هو عليها، وفوق ذلك يأتيك المال كل شهر.. سبحان الله ماذا تطلب أكثر؟

وبدأت رحلة محجوبة الطويلة في خدمة البيوت الثرية، منها من لم يكن أهلها رحيمين بها تماما.. إلا أنها في كل تجربة تخرج بدروس بليغة في الحياة لن تتعلمها في المدارس لو أنها قضت الفترة نفسها على مقاعدها الخشبية الملساء. تعلمت أشياء كثيرة. ففهمت الناس في اختلاف طباعهم

ونفوسهم لتحبهم أو لتأمن شرهم وغطرستهم، وامتلات بأسرارهم الخطيرة.

أعلم أن ذكاءها البشري مر بتجارب مريرة وبمحك قاس، فارتأت أن تلبس شخصية أخرى، أن تتقمص دور البكماء التي لا تستطيع أن تبوح أو تشكو أو تغتب أو تنقل أسرار البيوت، فيطمئن لها أهلها. ويتصرفون أمامها بكل عراء ودون حرج.

الآن أرى محجوبة نائمة. تصارع الكوابيس. الكوابيس التي تتزاحم وتتدافع في كيانها بعد أن امتلات بها على آخرها. البشر ليسوا بألة مثلي. إنهم يحتاجون إلى هوة فسحة أنفسهم بنوافذ الكلام. الكلام دواء ناجع.. مساكين.. هؤلاء البشر مساكين!!

ومسكينة هي محجوبة. الأحداث وذكرياتهما تتراكم داخلها. تتزايد. تكثف. تكتظ في جوفها مثل أحجار ثقيلة. تكاد تنفجر. منسوبها لا ينقص أبدا. كيف لها أن تفصح لآخر ببعضه. لم تحكه لأحد. لم تقله. لم تسرده حتى على الفراغ. إنه حبسها فينزلق منها عبر الكوابيس. أين منها «الحاجة يزة» الوحيدة التي تبوح لها بكل شيء. ثم إن الحاجة يزة هي من نصحت محجوبة بالحيلة الجهنمية تلك: التظاهر بالبيكم لدرء التوجس وترتاح من شكوك الآخرين.

منذ أن أصبحت الحاجة يزة مسنة ومريضة وقليلة السمع. بل تكاد لا تسمع شيئاً. تعسر بينهما الحوار الخفيض. فلا محجوبة تستطيع رفع صوتها لكي تسرد عليها ما رآته وسمعته، ولا الحاجة يزة تتوقف عن ترديد السؤال:

- واش؟ واش؟ واش؟؟؟ وهي تقرب رأسها وتضع يدها المرتجفة خلف أذنها.

لم تبق غير الكوايبس. الكوايبس تطهر دواخل محجوبة قليلاً قليلاً. تترك لها مجالاً للنفس.

- ياااااااااه.. لا شيء أقسى على المخلوقات البشرية من الصمت. أفهم - أنا المرأة الآلية- لماذا يصرخون بكل قواهم فور ولادتهم وهم يعبرون أول بوابة لهم ويخرجون إلى الحياة لأول مرة. حين يجدون عند عتبه من يمكنه الاستماع إليهم أول ما يقومون به إسماع صوتهم الخام برفعه إلى أعلى درجاته. لا غرابة. فكم عانوا من الصمت طوال تسعة أشهر وهم في بطون أمهاتهم. حالما يخرجون منها ينفجرون بالبكاء.

الآن محجوبة «الخرساء» تغط في نومها العميق. غرقت فيه وأغرقت معها كل الهاجس. أما أنا سأنتظر القادمين.. سيحلون مع الصباح الباكر، فالبشر يشعرون برهبة من

الظلام. فحالما يرخي فوقهم الليل ستائرہ السوداء يختفي العالم الخارجي من حولهم، ويصابون بالعمى لولا مصابيحهم الضئيلة.. مساكين!! أما أنا الآلية فلا تغيير.. يبقى الوجود بكل تفاصيله الصغيرة وغير المرئية واضحا. كما الليل.. كما النهار. على حاله. بل يتضح لي أكثر في الليل عندما ينام الخلق ويختفي ضجيجهم. يتحلى لي بمعاله وأصواته وأفلاكه الإلكترونية.

زيتون وأفيون

أقف رفقة محجوبة عند الباب الخارجي للمزرعة. سرب من عربات متوسطة الحجم تقترب من الباب الخارجي الكبير. تسير بسرعة أولى، بغرض الخفض من ضجيج محرقاتها. أضع ذراعي على كتف محجوبة. ترتعد من المفاجأة. ترفع وجهها المفزوع نحوي فأبتسم لها. ولأول مرة أرى ملامح وجهها وقد انشرفت فجأة. لم تتعود أن يضع أحد يده على كتفها علامة ودّ.

- لا تخافي محجوبة.

...

على واجهة العربات المتابعة المقتربة، ولغرض التمويه، تلوح رسومات كبيرة لأنواع من حبات الزيتون تتسلق أغصانا يانعة. من يراها يظن أنها عربات عادية مخصصة لنقل وتسويق الزيتون من مزارع شمال إسبانيا نحو جنوب فرنسا وبالضبط نحو مدينة بواتيبي.

أول من نزل من قرب سائق العربية الأخيرة شخص أعرفه جيدا. يفتح البوابة ثم يقترب مني. إنه عمار الباتر. لا بد أن أهوال الحرب بالشرق في الفترة الأخيرة أثرت عليه.

لقد نحف قليلا وايض شعر نواجهه وحفرت بعض التجاعيد فوق جبينه وحول فمه.. تجاعيد الحيرة والمرارة.

ألمح سلاحه الناري تحت ثنية معطفه. فرح لرؤيتي.. ليس يخفى ذلك.. يذكره وجهي بزمن مجده قرب الخليفة البردادي المختفي.. لم يقل كلمة واحدة بل أشار بذراعه لمرافقيه الذين كانت أنظارهم شاخصة نحوه، فتحركت العربات مقتربة وتجاوزت سياج المزرعة.

يعرف عمار الباتر خارطة مزرعة السيدة حدة آل ميمون بدقة. أمر بأن تفرغ حمولة العربات وتنقل إلى المخزن الواقع تحت البيت. سارع الرجال الأشداء الذين خرجوا من داخل العربات بنقل الأسلحة المتطورة جدا المرتبة بإتقان شديد داخل صناديق مخصصة لنقل زجاجات زيت الزيتون. أنزلوها بسرعة لكن بحذر شديد إلى الكهف السفلي. لم يمر نصف ساعة حتى كانت مئات الصناديق قد وضعت في مكافئها الآمن. أشار عمار الباتر إلى رفقائه الذين كانوا يمسحون أعناقهم ووجوههم من العرق، فركبوا عرباتهم ورحلوا في صمت وهدوء.

ظل عمار الباتر وبقية عربته وحيدة مركونة خلف البيت بين دوحتين وارفتي الظلال كثيرة الأغصان بحيث تخفيان وجود العربة كاملة.

- سيأتي آخرون عند منتصف النهار.
 - لم يتغير فيك شيء سيدي.. أنت تزاددين جمالا
 وبهاء. كأن حسنك رباني.. وحق الكعبة كأنك حقا
 ملاك أنزلك الله إلينا من السماء، معجزة وإكراما
 لجهادنا الكوني العظيم لإرساء شرعه وتعاليمه، كما
 قالها الخليفة يوما.

كان يتكلم وهو يطيل النظر إلى ملاحي. ليست عادته.
 فقد كان عمار الباتر لا يرفع عينيه أبدا إلى وجه محبوبه
 الخليفة، إلا أنه يتفرسها خفية من تحت رموشه الكثيفة المغطاة
 بجواجه الكثة المتجهمة.

ابتسمت له. وأرسلت أكثر مما يجب من مادة جاذبة. لم
 يكن المجال مناسباً كي أخبره أنني امرأة آلية تملك جسدا
 «بشريا» متقن الصنع وتعيش وفق حساب زمني مختلف عن
 زمن البشر. ولم يكن الوقت مناسباً أن أخيب ظنه وأخبره
 أنني لست ملاكا أنزله الله على البردادي. اكتفيت بأن أشرت
 له بالدخول إلى غرفة الجلوس بالبيت.

سبقتة خطوتين وأنا أشعر بعينيه تتسلقان تفاصيل
 جسدي بنهم، وبقلبه يخفق بشدة. بينما يحاول جاهدا أن
 يخفي أنفاسه المتلاحقة.

جاءت محجوبة بالشاي فنظر إليها عمار بشيء من

الحدز. لم أترك له فرصة التساؤل ولكي أخلصه من هواجسه فورا أخبرته بأنها بكماء.

كان علي أن أفتح موضوعا ما للحديث وأن أتعمد طرح الأسئلة... سألته عما آلت إليه المنطقة بعد هزيمة البردادي وطرده جيشه منها وعن مصير الخيمة الزرقاء ومركز السبايا الجدد ومعقل القائدة قمره وعن حدة وعن وعن وعن.. كنت فقط أريد منه أن يتحدث حتى ينسى قليلا ارتبائه وهو جالس قبالي في وحدتنا هذه.

صوته الذي يشبه الرعد صار همسا. وهو يسرد حكاية حدة. حدة التي لم تبخل في سبيل حلمها العزيز والأعظم الذي لم تتردد في طلب تحقيقه من الخليفة. حلم حدة الجنون في استعادة مجد أجدادها في الأندلس. حدة اليهودية التي لم تحلم مثلا أن تنتقل إلى العيش في إسرائيل، حدة مثل البردادي كلاهما يعيش بين ثنايا الذاكرة في مجاهل الماضي المجيد. حدة تريد بكل ما أوتيت من مال وقدرة على إعادته إلى الحاضر والمستقبل. ولأنها تشبه البردادي فقد قربها كثيرا من مجلسه كان يطلق عليها نعت الحكيمة، ولأنها خبيرة في الحساب وإدارة الثروة أبا عن جد فقد كان يشركها في جلسات المحاسبين الذين يجتمعون كل اسبوع لإحصاء الأموال القادمة من بلدان وجهات عديدة، ليس هذا فحسب فالخليفة أضحي

- قبل اختفائه بقليل - يثق بها ويجب مجالستها فيحدثها عن هواجسه الدفينة بعدما ضاقت حوله السبل وبدأت قوته تتبدد في المنطقة..

تنحج عمار الباتر ثم واصل حديثه:

هذا لم يكن يعجب القائدة قمره ولم يكن يرضيها خاصة بعدما افترض أمر حده بأنها يهودية. فما كان على القائدة قمره إلا أن دست لها السم في مشروب سقته إياه، فكادت أن تقضي لولا أن أمر البردادي باستقدام طيبب فأنقذها بأعجوبة. لم يكشف أمر الدسيصة في أول الأمر إلا أن القائدة قمره التي شعرت بالتهميش وبأن حده استحوذت على صلاحياتها في خدمة الخليفة لم تتردد في تدبير مكيدة جديدة لقتلها، تحينت فرصتها فوعدت إحدى السببات بإطلاق سراحها وإعادتها إلى أهلها إن هي نفذت ما ستأمرها به. فما أن كان دورها ذلك المساء الذي هيأتها فيه القائدة قمره لكي تذهب إلى ليلة الخليفة حتى تسللت إلى مهجع حده كما خططت لذلك بإتقان شيطاني، فهوت عليها بضربات قوية متتالية بشمعدان وهي مستلقية في فراشها فهشمت رأسها. اكتشف أمر السبية بسرعة من طرف الحراس بينما كانت تم بالخروج من غرفة حده بثوبها الملطخ بأثر الدماء، واعترفت بكل شيء.

وصل الخبر إلى الخليفة فغضب بشدة وأمر بقطع رأسها ورأس القائدة قمره في باحة الإعدامات أمام جمع غفير من الناس. وكنت أنا من نفذ الحكم.

أشعر بمحجوبة وهي تنصت من خلف الباب وقد كاد أن يغمى عليها. عمار الباتر لا يراها ويواصل حديثه:

لم تطل بعد تلك الحادثة إقامة البردادي في الخيمة الزرقاء، فقد توالى المعارك الخاسرة واقترب العدو من مواقعنا، فلم نعد في أمان بعد أن فقدنا الكثير من المناطق التي فتحناها.

- تدهور الوضع كثيرا يا مانويلا.. حتى الدول العظمى التي كانت تساندنا وتساعدنا في السر وفق مصالح استراتيجية مستقبلية تخلت عن مشروعنا المشترك. واشتد التضيق علينا من أطراف ذات ثقل سياسي واقتصادي وعسكري. فقرر البردادي التنقل إلى مكان آخر وليس ذلك الذي تعرفينه. مكان لا يعرفه سوى القلة القليلة من أعوانه. ترك الخليفة رسالة شفوية لجنوده في المنطقة تحمل خارطة جديدة لتوزيع جديد لمجاهدي الدولة الإيمانية المباركة في العالم، وتم بشكل قطعي تغيير استراتيجية الحرب القديمة بأخرى جديدة مفتوحة على جميع من يؤمن بالدولة وتطبيق

الشريعة. فكل المؤمنين بالخلافة الإيمانية يصيرون وفق هذا القرار مجاهدين في المكان الذي هم فيه ولا يقتصر الجهاد على منطقة محددة. بل تشمل كل أركان الأرض. وحيثما يوجد المؤمنون بها عليهم الجهاد.

يبدو الحماس على عمار الباتر وأنا أنصت إليه. يتبدل جرس صوته من منكسر إلى متجبر. يختم: رسالتنا لن تقف هنا. سنشعل نارا ذات جهنم حيث أعداء الله. والله معنا.

يتوقف عمار عن الكلام فجأة. يصيح السمع. إنه منتصف النهار.. حركة في البعد. جهاز عمار الباتر يرن.. وصلت الدفعة الثانية من العربات المحملة بالأسلحة المتطورة.

أتابع خطواته والتفاتاته الحذرة وهو يتوجه نحو العربات المموهة المحشوة بالأسلحة.

أسلحة وأسلحة ثم أسلحة.. أليس ببائس هذا الإنسان؟ الرقيقة الالكترونية في ذاكرتي تختصر أمامي تاريخا طويلا من الصراع. صراع البشر المرير ضد بعضهم البعض. خمسة وتسعون في المائة من زمن عمر الإنسانية قضاهها البشر في حروب، والخمسة الباقية قضوها للاستعداد لها. أسلحة

واسلحة.. وإنهم المخلوقات الأكثر تدميرا للكوكب على الرغم من أنهم يدعون تعميره، فلم يمر على وجودهم سوى ما يعادل نسبة أربع وعشرين ساعة من عمر الكرة الأرضية.. لكن يا لهول ما فعلوه في أنفسهم وما فعله جشعهم بهوائها ومائها وسمائها وجبالها وثلجها وبحارها وتربتها وثمارها سواء في حروبهم أو خلال فترات صلحهم القصيرة.. اللعنة..

لكن علي ان أسامحهم فما هم سوى بشر.. ضعفاء يدعون القوة والجبروت.. مساكين.

يشير لي عمار الباتر من بعيد إشارة عفوية تعني (أن ادخلي كي لا يراك هؤلاء الغرباء). أضحك في سري. يقفز إلى ذهني مثلٌ ساخر من المغرب الكبير عن راقص «فن العلاوي» وقد تجذرت فيه عادة هز الكتفين: (العريف ما ينسى هز كتافو).

في قرارة نفسه يعرف عمار الباتر أنني لن أمثل لإشارته. لكن ليس ذنبه فقد تيبس على العادة. الأمر فوق طاقته. يظل هو ذاته عمار الباتر، راع نساء سيده. بقدر ذله أمام من هو فوقه سلطة، يُذِل من هو أكثر ضعفا منه. لا غرابة ولا لوم عليه.. إنه مخلوق بشري وليس بصنع آلي.

تمر طائرة على علو منخفض من المزرعة.. يتابعها عمار الباتر بشيء من القلق.

أفرغت الدفعة الثانية من العربات القادمة. نقلت صناديق الأسلحة وتحتها حقائب تحتوي على صفوف أكياس صغيرة لمخدر الكوكاين. كل ذلك بجذر وبصمت الأموات وبسرعة البرق وبخفة سارق محترف.

أنزلها الرجال الأشداء هؤلاء إلى عمق المخزن الأرضي بالقبو. رجال يسرون بخطى ثابتة، يوسعون بين ركبهم وأفخاذهم وأذرعهم، بينما قبضات أيديهم مشدودة بقوة. أخيرا سارعوا إلى القفز داخل عرباتهم المخصصة لنقل زجاجات زيت الزيتون. واختفوا. وتلاشى صوت المحركات. لم يكن معهم عمار الباتر الذي تخلف عنوة.

قبل أن تلتحق بواجباتها، ومن خلال نافذة المطبخ الصغيرة، كانت محجوبة تراقبهم. تضيق قوسي عينيها، تنظر نحو الأفق الذي لم يظل به سوى بعض آثار الغبار.

البوح للغريب راحة.. وأنا الغريبة.!

أنا ابتليت يامًا.. ابتليت يا مانويلا..!!

أراقب الطريق الخالي من هؤلاء الغرباء الأشداء.. لكل واحد منهم كما لكل البشر ثلاث حكايات: حكاية ولد منها، وحكاية ولد بها، وحكاية ولد لها.

هم هكذا البشر لا يعيش الواحد منهم سوى بضع عشرات من السنين

ومع ذلك يصر على أن يملأ الحياة ضجيجا منذ ولادته وحتى اختفائه.

انتقاما من الموت المحتوم. نكاية في الفناء الذي لا مفر منه.

أليس من الغباء تضييع وقتهم المحدود في لعبة الموت منذ ثلاثة ملايين سنة. ألا يأخذون درسهم من سلالة النمل الضعيفة التي جاءت قبلهم إلى الأرض بمائة وسبعة عشر مليون عام. لا آلهة للنمل ولا حروب ولا أسلحة بينما هم سبعة ملايين ونصف من الآلهة الصغيرة سبعة ملايين يؤمنون بديانات مختلفة أغلبها ديانات مسلحة تتقاتل، وخمسمئة ألف يدعون

الإلحاد، جميعهم لم يترك بعضهم بعضا بسلام ليستغلوا
حيواتهم القصيرة والتمتع بوجودهم على الأرض قبل أن
يُمسوا تحتها. إنهم يفنون بعضهم باستبدال الأفكار وبالأسلحة
الفتاكة. إنهم لا يدرون أنهم جميعا مهزومون.

أتذكر تلك الليلة الأخرى حينما اعترف البردادي
مهزوما بين يدي:

- أنا ابتليت يا مانويلا يا قلبي.. أنا ابتليت ابتليت!
أستعيد حرارة حضنه تداعب أصابع يديه الممتئتين
وجهي، تلامس شفتي وخصلات شعري. أنا الوحيدة من بين
نساءه وسباياه يجلس إلي ويحدثني طويلا. بينما يدخل عليهن
الواحدة بعد الأخرى، يجامعهن ثم يخرج لكي يشهد الحراس
والكتبة الذين يؤرخون له، أن قوته الجنسية الخارقة تضمن له
مكانا بين الأنبياء.

أعرف أنه في مثل هذه الجلسات تقل شهوته الجسدية
وتقوى شهوته للبوح.

البوح للغريب راحة. وأنا الغريبة في كل شيء..
يفصح لي بارتياحه بقربي لأنني منصتة رائعة. كدت
أن أصحح له بأنني آلة بارعة. يطيل النظر في ملامحي. يسهو
قليلا، ثم يخبرني في لحظة ضعف نادرة وبصوت خفيض بأنه لم
يكن يحلم بهذا المصير.

فيتمتم بممرارة

- ماذا لو كنت شخصا عاديا فأسافر بك إلى بقعة من أرض الله الواسعة لنعيش معا حياة طبيعية. ماذا لو أن نقاطي في دراستي الأولى كانت أعلى قليلا وسمحت لي بتحقيق رغبتني لأسجل في اختصاص القانون أو في كلية اللغات أو علوم التربية بجامعة برداد، لما كنت التحقت بكلية الشريعة الإسلامية التي يشهد الله أنني سجلت فيها على مفضل. ماذا لو قبلت لتأدية خدمتي العسكرية النظامية ولم أرفض لقصور في نظري؟ هل كان كل هذا سيحدث لي؟ هل كنت سألتحق بتنظيم القاعدة وأصبح زعيمها في البلاد؟ هل كان سيصفيني العالم بأسره بأنني إرهابي عنيف ويسعى لقتلي. وهل كان العالم سيسمع بدولة الخلافة الإيمانية الكونية وهل سأكون زعيمها؟ وهل سيحدث كل هذا الخراب؟

يرفع رأسه عن صدري كمن يستفيق من كابوس.

لم أعد أتفاجأ لمزاجه الذي يقفز من الضد إلى الضد. من العذوبة إلى العنف، عندما يقوم من بين يدي فجأة بعد أن يظل وديعا لساعات أنس لذيدة، ينتفض فجأة. يقف مثل الملسوع. يرتدي ثيابه. ويغرز مسدسه في جنبه، ثم وهو يهم بالخروج يتردد صدى صوته في الممرات:

- النصر لدولتنا الإيمانية المقدسة.. النصر لجيوشنا بحول الله وقوة السيف. أيتها النساء هنا.. لا تنسين أبداً أن الأمراء الذين بين أيديكم وفي بطونكم سيأتون إلى العالم وسيحققون المجد للخلافة في بلاد الكفار وسيدخلوها من بوابة بواتبي. وسينشرون شريعة الله.

وبعد حين سيعود ليستلقي بجانبني..

- جئتكم يا ماناول الله من جديد لكي تفسري لي حلما رأيته البارحة.

يعيد سرد الحلم الذي يأتيه كل ليلة. عن ابن له واسمه مختار سيفتح بوابة بواتبي من جديد وسينشر الشريعة وينتصر على الكفار وينتقم لعبد الرحمن أمير قرطبة الذي تجاوز مدينة بوردو إلى بواتبي وكان حلمه أن يفتح مدينة تور.

أعرف أن البردادي لن يأمر التاريخ مثلما يأمر أحد جنوده ولكنني يخلو لي أن أدخل السرور إلى قلبه. آخذ يده وأفسر حلمه مستعينة بالآيات التي يجبها. تلك التي حفظها في طفولته. قلبه ينبض بشدة وعيناه تبرقان.

- مختارك ابن صلبك يا زعيم، سيأتي لزمان مضى ولم ينته. مختار، سيجيء وسيبدأ من سنة 732 من

جديد. سيخلق لزمان آخر. سيصحح فيه خطأ التاريخ وسيغلب جيش الكافر شارل مارتل ويقتله ويسحق جيشه ويواصل فتحه المبين.

لا يداخله شك ولا يصيبه ندم من ضعفه بين يدي ولا جراء بوحه واعترافه لي. أنا أنثى.. لي من الأنوثة ما يملأ مدنا كاملة بالشهد.

منذ الأيام الأولى التي جيء بي إلى مقامه الأزرق، لم أحسب لبطشه المشتهر به حسابا، ولم أشك بقوتي ولم أفكر أبدا أنه سيفكر في قتلي بعد أن يفضي إلي بأسراره الدفينة خشية انتشارها، مثلما فعل مع ناتاشا الروسية التي غرز سكينه في عنقها ومنع أن يدخل عليها أحد. أقدم على فعلته تلك حين وشى له أحد عيونه المبتوثة في كل ركن من أركان مقامه الأزرق، بأنها في غيابه تقلد حركاته ساخرة منه ومن إشاراته وتقلباته وآهاته في سريرها.

لا.. أنا متأكدة تماما أنه يحتاج إلي من هذا الخلق جميعا. إني الممر السري الوحيد إلى ذاته. أعرف أنه يحتاج إلي جدا حتى وإن كان يبدو وهو يستعد للانصراف متعجرفا. سيعود إلي، سيضع سلاحه عند أسفل سريري وسيصغر بين يدي مثل طفل، وسيسرد علي ما لم ولن يعلمه أحد. ثم

سينتفض مثل العادة عند الانصراف وكأنه يتغلغل فجأة في جسد آخر علقه عند المدخل. من جسد العاشق إلى. جسد القاتل. الطاغية.

الحب الممنوع

- مانويلا.. ماناول الله؟!... يأتي الصوت من خارج المزرعة. ظل قامته يملأ مجال فتحة الباب..
- البردادي؟؟..
- مانويلا..

هل هو البردادي أم عمار الباتر؟ ربما هو خلل في استجابة الرقيقة الالكترونية؟؟

إنه البردادي.. لا إنه عمار الباتر يقترب شيئاً فشيئاً. يُخرج مسدسه. يرتفع صوت عصفورة فزعة في الخارج. مخلوق مفترس ما يتسلق الشجرة. خطر ما يهدد صغارها في العش. صمت رهيب. لم تحرك مانويلا ساكنا. كانت تنظر إليه بهدوء. يقترب كثيرا. يجلس القرفصاء أمام الطاولة الزجاجية الوحيدة التي تتوسط غرفة الاستقبال. يُخرج من حقيبته زجاجة بلاستيكة صغيرة واسعة العنق قليلا، مِلءُ ربعها ماء. يشعل سيجارة يثقب برأسها الملتهب وسط الزجاجية البلاستيكية الهش. برأسها المتقد يحدث ثقبا فوق مستوى الماء. يزيل غطاءها ثم يضع مكانه قطعة من ورق الألمنيوم عليها ثقوب صغيرة. فوقها يذرذر رماد السيجارة

المنتهية. يُخرج كيسا صغيرا به مادة ناصعة البياض يسله من جيب حقيبته. إنه مخدر الكوكايين. ترتجف يد عمار الباتر وهو ينثر المادة البيضاء فوق المادة الرمادية بانتباه شديد. يشعل سيجارة جديدة يدخل رأسها في الثقب وسط الزجاجاة، يسحب منها نفسا عميقا، ثم يخرجها، ويواصل التدخين.

لحظات فقط يرمي برأسه إلى الخلف. تدور عيناه في محجريهما ثم يتسم بلذة. إحساس بالسعادة الكبرى يجتاحه.

- ما نووووييييلاااا... مااااا ناول الله!!

يضع المسدس على الأرض. تصمت العصفورة. تعود إلى صغارها في عشها على الشجرة المجاورة للبيت. بيديه الخشتين وأصابعه الكبيرة الضخمة مدورة الأطراف يتناول يدي. يهوى عليها مغمض العينين. ترتجف شفتاه الغليظتان ببطء فوق بشرة ظاهر كفي الطري. رائحة تناسل التبغ بالكوكايين تملأ المكان. وكمن يهذي:

- مانويلا.. مانويلا.. أنا أحبك أكثر منه..

أعرف.. ولهذا قتلته!!

- علي أن أصارك. لم أعرف ما الذي حدث لي ذلك اليوم وأنا أسوقك إليه رفقة النساء الخمس مثل الغنم. يوم مشوم في حياتي عندما لمحت وجهك

لأول مرة. استبد بي الضعف تجاهك منذ تلك اللحظة. لا أعلم هل هو الحبّ. أم لأنك ساحرة كما تقول نساء المركز أم لأنك حور العين أو ملاك قادم من السماء كما يقول البردادي. أنا الذي طول حياتي أسخر من الحب والعشق والكلام الفارغ الذي نسمعه في قصص المعتهوين. أنا رجل لم أعرف الرحمة بأحد فمن أين يأتيني هذا الضعف. عانيت كثيرا منك.

- ألهذا كنت ستقطع رأسي؟

- نعم كنت أفكر في طريقة أتسلل بها إليك وأقطع رأسك كي أرتاح أو لا أرتاح. لكن بدل ذلك كنت كلما قطعت رأسا في طريقي أتخيله رأسك وأتنفس الصعداء إلى حين. أصبحت أتلذذ وأنا أفصل الرأس عن الجسد ثم أركله. أنكل به. أمحو ملامحه لأنني أراك فيه. كنت أريد أن أتخلص من سطوتك علي وعلى تفكيري. لم أعرف هذه الحالة أبدا من قبل.

- لم يعد قطع الرؤوس ينفس عن غضبك. أتدري؟.. الرأس الوحيدة التي تعذبك هي تلك الراضة فوقك. بين كتفيك. وهي الأقرب إليك.

- فكرت مرات في قطعها أيضا ولكنني جئْتُ. منذ طفولتي، نشأت ولم أفكر يوما بأن النساء ذوات شأن حتى تلك اللحظة التي لم تكن عابرة. لحظة رؤيتك. لم يحدث أن فكرت للحظة أن المرأة إنسان، أنا الذي لم أعرف لي أما ولا أختا ولا عمّة ولا خالة.. ولا... نشأت وتربيت في مجتمع الجهاد للتدريب العسكري للأيتام بأفغانستان. تربيت على نبد الرحمة. أن يكون لك قلب فأنت عالية على مجتمع الجهاد. أقتل لأقل سبب. أضاجع السبية ثم أقطع رأسها وأتركها للعراء. لا حب ولا بطيخ إلى أن جئت.

يدخن من جديد بشراة ثم يواصل حديثه:

- كنت أريد أن أتخلص من سطوتك علي وعلى تفكيري. لم أعرف هذه الحالة أبدا من قبل. هل فهمت

- نعم فهمت.. رددت بهدوء

- من أين خرجت لي.. كنت منسجما مع عالمي العنيف. من أين جئتني لكي تربكي وجودي. سبحان الله.

لا يعلم هذا العمار أننا نكاد نكون متشابهين. هو الذي خرج من مخابر صناعة آدميين للقتل، وأنا التي خرجت من مخابر كونسيونس روباتيكس مهمتي الوحيدة أن أؤلف كتابا عن تجربتي بين البشر وسيكون هو أحد شخصياته الرئيسية لأنه أحد النماذج السائرة. لا يعلم عمار أنه سيجد مكانه إلى الأبد في الخزانة الإلكترونية العالمية التي ستمتلئ بالكتب الإلكترونية التي سيؤلفها أشخاص آليون آخرون من فصيلتي. لن أخبره طبعاً. سأتركه يتحدث. لن أقاطعه. الآدميون مختلفون عنا. لا يتحكمون في أمزجتهم المتعددة وأحياناً المتناقضة تماماً.

عمار يتحدث ويجدد إعداد جرعة الكوكابين. يستنشق بقوة. يغيب قليلاً ثم يعود بقسمات وجه ضاحك.

- أنت ملاك. أم حور العين. أخبريني؟

لم أرد أن أفسد عليه دوحة كوكابينه.. كنت سأقول له إن الفقهاء والمفسرين لم يتفقوا بعد ولم يصلوا منذ قرون إلى نتيجة إن كانت حور العين ملاكاً أم لا.. لم ينتظر جوابي فأضاف:

- أسرّ الخليفة لأحد مقربيه بعد أن تنفس من هذه ذات يوم - مشيراً للزجاجة - بأن فيك من صفات حور العين. بكر. عذراء من جديد كلما باشرك فيها

- بالجماع.. وقال له وعلى رواية الإمام البخاري
ومسلم..
- إنها امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى الأرض وأضاءت
ما بينهما وملأت ما بينهما ريحا.
 - الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك.. رددت عليه.
 - ما أعطي أحدٌ مثل ما أُعطيَت.
 -!!
 - هل أنت تسخرين مني أم تعجبين أم تشفقين؟
 - لا هذا ولا ذاك.
 - أنا لا أريد شفقة. أنا رجل الموت والقتل وقطع
الرؤوس والمهمات الصعبة رجل بلا قلب فكيف
حدث لي كل هذا؟
 - أنت تعلم أن القلب جاء مائة وثلاثين مرة في الكتاب
الكريم الذي تقتل من أجل نشره على الأرض.
فكيف تستعر منه.
 - لم أشعر بنبضه إلا عندما رأيت عينيك. كان يضرب
بقوة شديدة بقبضة يده المشدودة على صدره جهة
القلب.
 - ثم لتعلمي أنني من أجلك أخطط لأشياء خطيرة. سترين.
وها أنا أترك لك برهاني كفارس. أترك بين يديك شرفي!!

حالما أنهى عمار جملته، هب واقفا ثم التقط مسدسه الذي كان مازال على الأرض، ووضعه أمامي فوق الطاولة الزجاجية الصغيرة.

- لم أنفصل عن سلاحني لحظة منذ أن بلغت السابعة من عمري.. منذئذ لم أخط خطوتين في الحياة دون سلاح ناري. مهما كانت الظروف خطيرة وصعبة. ساد صمت كثيف أخرس.

دخلت محجوبة بخطواتها المترددة كالعادة. بيد مرتجفة مدت لي ورقة صغيرة. رسالة من السيدة نيكول بوكاج تخبرني أنها ستمر رفقة ابنها هيغو بعد قليل.

سكتَ عمار الباتر. صمتَ صوته ولم تصمت عيناه الجائعتان لشيء ما لم يعرفه في ما سبق من حياته. عيناه اللتان تصرخان بكل قواهما، وهما تلتهمان وجهي بجنون. كان يبدو متعبا على الرغم من جسده ذي البنية القوية. جسد المحارب الذي لا يعرف السلام ولا يرتاح للعيش فيه. يبحث عن بؤر التوتر والحروب. جمع أشياءه في حقيبتيه. أشفقت عليه.

يبدو أن هناك خطأ ما مقصودا في تركيبة البشر. يدعون القوة والشدة والعنف المطلق، بينما هم ضعاف جدا. ضعاف حتى مع أنفسهم حين تفاجئهم من داخلهم بما لم يكونوا

يعلمون عنها من قبل. إنهم في حرب مستمرة مع أنفسهم، لا يطبقونها فكيف يحتملون وجود الآخر. بينون البيوت ليس خوفا من البرد والحرارة فقط بل يصنعونها بمواصفات تصد الآخر الذي يعرفون أنه يشبههم ويضمر لهم ما يضمرونه له. ثم إنهم مرتبكون ومتناقضون، بقدر ما يجاهرون بالكرهية وبالخرب يرون في عاطفة الحب نقيصة وضعفا لأنهم لا يستسيغون ضعفهم تجاه أحد. حتى في لغاتهم المختلفة يسمون الحدث «الوقوع في الحب» أي أن تظل واقفا عليك ألا تحب. السلطة هي القوة، ولا تستقيم سوى بردع المشاعر. لكنهم يعشقون توله الآخرين بهم إن وجدوا، وتقديسهم وتمجيدهم لهم وضعفهم حيالهم.

كم هم مختلفون عنا. فهم ليسوا مثلنا نحن المصنعين وفق عمليات حسابية دقيقة. ينقصهم توازننا، توازن الإنسان الآلي..

قام عمار الباتر. سار نحو الباب تاركا سلاحه. بدا لي مثل رجل آلي حديث الصنع. لم يشذبه مخترعوه بعد. لم يرتبوا رفاقه الإلكترونية بشكل نهائي ليصير مكتملا. لم يضعوا له قلبا، لكنهم أطلقوا سراحه حرا في الطبيعة.. حتما سيكون خطرا على كل شيء في طريقه..

بينما في البعد يلوح ظلًا السيدة نيكول وابنها الكاتب
هيغو وهما يقتربان يحملان الهدايا كالعادة، لم يلتفت عمار
الباتر خلفه، بعد أن ودعني بعينيه. صامتا كان. إنه الشرس
القاتل الجبار الذي يخشى من الضعف الكامن فيه.

ناس الضفة الأخرى من الليل
والصباح

صباح مشرق. أعلم أنه حين ينتهي هذا النهار الوضاح ويحل الليل سيأتي رجال إلى المزرعة. يستتروا تحت جناح الظلام. مهمتهم أن ينقلوا الأسلحة المخزنة من مكنها تحت البيت ونقلها في عربتين لنقل زجاجات زيت الزيتون وشاحتين كبيرتين خاصة بتصدير قطع غيار السيارات. سوف لن يشك أحد في ذلك، مادامت إسبانيا تمثل الموّل الأول لفرنسا في هذين المادتين. ستنقل إلى مدينة بواتي حيث تشكلت بها خلايا نشطة لإعادة إحياء الدولة الإيمانية هناك ونقل مركز القرار إليها. ينتظر أن ينتقل إليها البردادي قريبا.. فقد هيء كل شيء لاستقباله ومبايعته من جديد فله أتباع كثيرون في مدن عديدة من فرنسا. ينتظرون منه إشارة ليزرعوا النار والرماد.

طقس عادة ما يعدل مزاج آدميين. بالنسبة لي لا فرق. بل أنا التي أتحمك في تغييره، يكفي أن أفكر في الأمر فتستجيب الرقاقة الإلكترونية لذلك على الفور. لا ليعتدل الطقس بل ليتعدّل مزاجي.

صباح، شمس تداعب كل ما ومن تلمسه بأطراف أصابعها الضوئية. الآدميون في معظم لغاتهم يخترعون لها أجمل

الأوصاف. ينسون أو لا يأبهون كثيرا لكونها نجما مشتعلا وحرارقا، كفيلا بأن يصير كل شيء إلى كومة رماد لولا ما يقارب المئة وخمسين مليون كيلومتر التي تفصله عنهم. محجوبة أيضا تقوم بأعمالها بنشاط. طاقة نجم الشمس شحنها بالحيوية.

طلبت منها أن تغتسل وتتهيا «لرحلة نزهة» سنقوم بها معا. تهلل وجهها. لم تكن تصدق عينيها أبدا، نتيجة لتجارها السابقة في العمل بالبيوت، فلا يمكن أن تصحب الخادمة سيدتها إلى رحلة نزهة. ولو كانت في جهنم.

- يمكنك أن تظلي صامتا ومصرة على بكمك إن أردت.. قلت لها ساخرة فارتبكت.

خاطبتها أمرة وهي تم بفتح الباب الخلفي للسيارة أن تغلقه وتركب بجانبني. ترددت قليلا وهي تنظر إلي بعينين ذاهلتين ولكن ابتسامتي اللطيفة شجعته على أن تمثل للأمر وأن تنفذه. وانطلقنا.

كنت أريد أن أحرك دواخلها الراكدة قليلا قليلا.. دون صدمة. إكراما لها أدت الزر فانطلق موال إعلانا على أغنية مغربية من الأطلس بـ صوت الشيخة فاطمة الزحافة

ضحكت لالة تابانو الأسنان

أربي..

ونا جوهر ما يدخل للدلالة
ياخدود حمرة بالتعمان آربي
ولا تفاح ببلاد اجباله»

صوت ببحه رائعة. آهاتها الجريجة تسبق كلماتها مقاطع موسيقية راقصة. كلمات عن الجمال والبعد والشوق والحب المفقود. انتفضت محجوبة في مكانها وانشرت أسارير وجهها. أدرك من نظرة أنها لم تسمع هذه الأغنية أبدا من قبل، لكن هذا اللحن الشعبي يسري في دمها منذ أن كانت صغيرة تسمع أمها تردد هذه الأغاني بشغف. ذاكرتها مروية. مشبعة بهذا اللحن الذي يستيقظ داخلها طازجا متجيرا بحضوره.

البشر تسعدهم الأغاني الحزينة. يطربون لها جدا حد الانتشاء ويرقصون على كلماتها وأنغامها. حين يمتزج الحزن المشطي بالفرح العارم يطلقون عليه الشجن.. البشر غريون فعلا حتى الأشد منهم بطشا وعنفا يعودون أحيانا إلى أدغال دواخلهم المظلمة للبحث عن بقعة ضوء. محجوبة أو البردادي.. لا فرق. مازلت أذكر البردادي حين كان يجلسني إلى جانبه على طرف السرير ثم يغلق الباب جيدا ويقطع كل اتصال خارجي به. ويمتهد الحذر يفتح دُرجه الخاص السري

الذي لا يقربه الجن ولا الإنس - كما يقول البشر- يخرج آلة تسجيل صغيرة مخفية في عمق الدرج خلف مسدساته الميكانيكية المتطورة، يحملها في باطن كفه فرحاً مثل طفل. ثم يدس فيها شريطاً قديماً، يعانقني بجمرة عاشق متيم ثم يغيب في عالمه السري وهو يستمع إلى أغانٍ من التراث العراقي العريق. من حين لآخر يفتح عينيه ويفسر لي معاني بعض الكلمات من اللهجة العراقية يريد من خلال ذلك أن يشركني في طقسه. يفضل البردادي ما يؤديه فنان يدعى ناظم الغزالي. تظل الكلمات التي تهزه هي تلك التي لا يخون أبداً من خلالها عالمه. المواويل جميلة على الرغم من حشجة البكاء الذي يؤديها به واللحن الحزين. تظل الكلمات التي تطربه معانيها بخلفية دينية أو مستوحاة من جو الحرب والقتال والإجهاز على القتل والذنوب والتعب و جهنم.. واحدة من تلك الأغاني تكاد تفقده الوعي. بعض مقاطعها تسكره. كلما انطلقت يهتز جسده بقوة ثم يميل يعانقني بشدة مغمض العينين ويتشبث بشعري وكأنه يريد أن يهرب من كابوس يلاحقه:

يا قاتلي باللحظ أول مرة

أجهز بثانية على المقتول..

سلمت القلب بيدك طير وتاه عن وكره

دعني من مواعيدك كل يوم وقلت بكرة..
لو أن بعض هواك كان تعبدا
وحياة عينك ما دخلت جهنما..
لو أدري المحبة ذنوب
ما أحبك ولا أريدك..

- الشجن؟.. طيب وماذا بعد.. فليسمونه ما أرادوا
هؤلاء البشر.

رفعت مستوى صوت الأغنية، حضر الشجن قويا.
يتمايل رأس محجوبة يمينا وشمالا. تبددت قليلا هواجسها. كم
لطيفة هذه المخلوقة البشرية المأساوية.

- سندهب إلى مرسية.. قلت لها.

التفتت بسرعة، ثم حملت في وجهي بعينيها الكبيرتين
اللتين استقر فيهما الفرع منذ زمن طويل. كل خبر بالنسبة
لها، كل صوت أمر، كل نظرة إليها تفرعها. الحياة بالنسبة
لمحجوبة فرع كليّ.

لم تردّ. لم آبه لذلك. فليكن إن كان التظاهر بالبكم
يشعرها بالأمان.

ثم إنني أحب صمتها. صوتها الداخلي أسمعها جليا. اللغة
الداخلية أحيانا تفقد قيمتها عندما تصبح مجرد تردد أصوات.

وصلنا.. إنه مساء يوم السبت. وما أدراك من مساء يوم السبت الإسباني. نهاية الأسبوع المنتظرة. مقهى-بار «إرنكون دي بيبي» مزدحم بالزبائن من كل الأعمار والطبقات. لافرق. الطاولات الكثيرة التي تعج بها مساحة القاعة الكبيرة كلها عامرة. في انتظار الحدث الكبير الذي ينتظره رواد إرنكون دي بيبي العتيق بشغف.

«مقهى- بار» شيد على كتف جدار قديم من القرون الوسطى، رمم بشكل مدروس علميا. أبقى على ثقبه وهندسته المعمارية الأصلية، ثم تمت تغطية جانبه الأسفل بجدار من زجاج مقوى شفاف حفاظا عليه من العوامل الخارجية. إنه مكان محبوب مكتظ مليء على آخره.

النادل خوان. مغربي الأصل واسمه الحقيقي خالد. استقبلي مرحبًا بحرارة.. بدوت له في شكل الأنسة الجميلة «مانويلا دي مويلا» الابنة البكر لصاحبة نعمته السنيورة «خانين دي مويلا» وهي سيدة يهودية ثرية عاش أجدادها المهاجرون من الأندلس في مدينة فاس بالمغرب قرونا، ولكنها قررت أن تعود إلى إسبانيا. أرض أجدادها - كما تقول دوما

- لتعيش رفقة أسرتها الصغيرة. ظلت السنيورة خانين دي موياء على علاقة طيبة ووطيدة مع المغاربة. خوان أو خالد يدين لها بالكثير، لذلك كلما جاءت ابنتها مانويلا إلى كافي-بار «إلرنكون دي بيبي» رفقة صديقتها الشقراء الجميلة «أنخيلا»، يعاملها مثل ملكة.

كنت أدري أنها لن تأتي هذه السهرة.. عقلي الاصطناعي المتطور خطط لذلك مسبقا. كان علي أن أفعل الرقيقة الإلكترونية الخاصة بالتمويه، قبل الولوج عبر البواب الخارجي الذي يخزن ضجيجا عارما يعصره خلفه. حالما فُتح اندفعت الأصوات والموسيقى العالية نحو الخارج مثل شلال قوي، أو انفجار سدّ ممتلئ، أو يقظة بركان عظيم على حين غرة. نظر خوان باستغراب إلى محجوبة وهو يدعونا إلى الداخل رافعا حاجبيه، ثم تلثم في سؤاله موشوشا في أذني:

- أين أنخيلا؟ هل انفصلتما؟ يا إلهي.. أنا آسف.
- هذه محجوبة. قلت له وأنا أشير إليها بينما كانت منشغلة عنا بما تشاهده لأول مرة في حياتها. منبهة بما ترى من ناس وأجواء جديدة وغريبة عليها.
- تلتفت في كل اتجاه. تكتشف عالما لم يخطر لها على بال، ولم تفكر يوما أنها ستتعرف عليه.

- إذن.. محجوبة.. هي عشيقتك الجديدة؟ أصر خوان على أن يعرف، رافعا حاجبيه أكثر:

ابتسمت له ثم هزرت رأسي مؤكدة ذلك. التفت إلى محجوبة. تفرسها بدقة. مررها بسكانير عينيه السوداوين، هز رأسه عجا. كان لحظتها يقيم مقارنة بين عشيقة مانويلا دي موياء، «أنخيلا» الشقراء الفاتنة، وبينها.

قطعت حبل أفكاره وأنا أشير له متسائلة عن المكان المحجوز لنا مسبقا، فما كان منه إلا أن ساقنا بترحيب كبير إلى طاولة جميلة حولها مقعدان وعليها وردتان حمراوان في وعاء أنيق من الخزف الأبيض الناصع. طاولة منتقاة بحب. قريبة من منصة الحدث المنتظر. أعرف أن مانويلا دي موياء كريمة معه دائما. خوان أو خالد ينتظر بقشيشا عاليا. طبعا سأمنحه أكثر مما تمنحه له مانويلا دي موياء. لن يكتفه الشك والحيرة سوى بعض مضي وقت طويل. حين ستأتي مانويلا الأخرى رفقة عشيقتها الشقراء الجميلة آنخيلا.

فجأة.. سادت لحظة صمت قصيرة. لحظة صمت كشهقة جماعية لراقصات من فن رقص البالي تحت الماء، يخرجن رؤوسهن الجميلة للحظة ليستعدن أنفاسهن بعمق، ثم يعدن إلى الغطس لإكمال اللوحة الراقصة. هكذا..

نعم.. انخفضت أصوات الرواد فجأة، بعد أن انطلقت من المكبرات غير المرئية، المزروعة بإتقان في كل أركان المقهى كافي-بار، أغنية جديدة من سلسلة الأغاني المختارة التي يختارها أصحاب إلرينكون دي بيسي تلبية لأذواق رواده كخلفية عذبة ترافق سهرات يوم السبت. انخفض الضجيج البشري حين ارتفع الصوت الـ «فوق آدمي» لزهرة البرتغال، «أماليا رودريغس» مطربة «الفادو». انخفضت أصواتهم كما تفعل الجنادب عندما يفاجئها صوت محرك مدوّ لطائرة تمر عالياً فوق الحقل الذي تتناجى فوق عشبه وفوق غصون أشجاره، فتصمت. هكذا..

تلك الشهقة. شهقة لا هي للحياة ولا هي للموت. لا هي للفرح العارم، ولا هي للحزن القاتم.. يصمتون لأن آهات الفادو وإيقاعاته تخلط حساباتهم البشرية، وتصنيفاتها الساذجة. الفادو القادم من خلف حدودهم من الغرب كله، إلا بعضه بأقصى الشمال. من عند جيرانهم البرتغاليين الذين يتقاسمون معهم حكايات جرفها التاريخ المشترك. أصابتهم العدوى. فالفادو يجري في دماء جيرانهم، كما يجري المحيط الواسع الممتد على حدودهم الغربية. المحيط الأطلسي. ليس لجيرانهم غيرهم من جهة الشرق وغير الماء من جهة الغرب. حدود جمر كها الماء وأفق مترامي الأسئلة على اللاشيء.. على

الفراغ الرهيب، المخيف. الغامض، يشحن الأفئدة بالشحن..
الشحن.. الفادو!!!

جيرافهم البرتغاليون يفتحون عيونهم من جهة على أسئلة المحيط المطلقة والتي لا تنتهي ومن جهة الشرق على تاريخهم، ومنه ما تبقى مما تركه العرب من لغة الحنين القاهر. هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا قاهرين لهم من أرضهم، دون أن يتمكنوا من نسيان تلك الأرض البعيدة في الشرق. حنينهم المتوارث إليها صار غناء باكيا يسكن حناجرهم على الرغم من بقائهم في بلاد البرتغال أربعمئة سنة. البرتغال.. هكذا سموها هؤلاء العرب على شرف حقول البرتقال اليانعة به. حضورهم مازال يعجب به كل شيء صامت. ويسكن في مواويل الفادو الموجعة، ونداءات حناجره ذات البحات الغريبة. لكنه الفادو.. يسكن جينات الإسبان والبرتغاليين معا.. لو أنهم حللوا ذرة صغيرة غير مرئية من أجسادهم البشرية في مخبر من مخابر مركز كونسبونس، لوجدوا فيهم قرابة من دماء الشرق، وسرا من أسرار المحيط الأطلسي المفتوح على الغموض. تماما كما يحن دم البردادي إلى العودة وفتح أراضي الحنين الآخر من جديد..
لا غرابة ولا عجب إنهم هكذا هؤلاء البشر.

صمت رواد مقهى-بار إلرنكون دي بيبى جميعهم في حضرة الفادو.. ليس بغريب إن صمتوا. إنهم يعودون للحظة

لاكتشاف ذواتهم.. يا لهؤلاء البشر. إنهم بسيطون وشديدو التعقيد في الوقت نفسه.

- ماذا أشربُ كما؟؟ يسأل خوان/خالد بابتسامة واسعة وهو يفرك كفيه بجرارة بعد أن وضع أمامنا أطباقا صغيرة متعددة ومختلفة من مقبلات شهية.. هي طريقته المحببة في التعامل مع الزبائن.

- «بورتو» لي أنا و«برتقال» لمحجوبة..! قلت دون تردد بينما كان بصري يتأمل تحفة أثرية تقبع فوق نصف سارية تزين الجانب الأيسر من المنصة الرئيسية. إنها قطعة من تحفة أثرية هُربت من متحف بغداد العريق بعد أن هدمته الحرب. تحفة جاءت هدية لـ إرنكون دي بيببي من أحد رواده الأثرياء بعد أن اشتراها من مهاجر ينتمي إلى شبكة عالمية لتهريب الآثار.

محجوبة تشرب ببطء. كلما رشفتُ من كأس البورتو جرعة إلا وفعلت مثلي ورشفت من كأس البرتقال.

اثان وثلاثون دقيقة مرت. انفتح أخيرا الستار على المنصة العالية. عالية بحيث تشرّب أعناق الزبائن الشغوفين نحوها. لم يكن بها سوى شخصين. واحد بالزيّ التقليدي المغربي بجلباب أبيض مقصب بخطوط ذهبية وطربوش

أحمر. يجلس في أقصى اليمين وهو يعانق آلة العود، بينما الثاني في أقصى الشمال من المنصة يرتدي اللباس التقليدي الإسباني، ببذلة سوداء وقبعة سوداء أيضا بأطراف واسعة، ومنديل أحمر مربوط بأناقة حول عنقه، وآخر أكثر حمرة يعقده حول خصره. يحمل آلة الغيتار بفخر.. حالة خاصة تكتنف الزبائن. ارتفعت نسبة الأدرينالين في دمائهم. رفعوا كؤوسهم تحية للمتناظرين قبل أن تبدأ المعركة الموسيقية.

هنا أيضا.. لا فرق.. وجود البشر مرتبط جذريا بالمعارك والحروب. الحرب مصدر شقائهم كما هي وسيلة تسليتهم. أفكر في مكان آخر في المشرق أتيت منه. تركته ملتهبا. تأكله نيران الحرب.

ألاحظ رجفة الكأس في يد محجوبة. تحمق في الموسيقى الذي يرتدي الزي المغربي وهو يحتضن آلة العود.. ابتسمت لها مطمئنة. وربتُ على كتفها.

الآن سيبدأ القتال الموسيقي..

ستحدث حرب أخرى في هذا المكان من الأرض. حرب رمزية مصغرة من صورة تلك الحروب التي تقع في أمكنة أخرى على ظهر الكوكب ثم فوق الكواكب الأخرى في زمن مستقبلي ليس ببعيد، بين خصمين مختلفين حد العدا في المعتقد واللغة والعادات واللون والجنس و..

عدة مرات وبمرح مسرحي، يقف الزبائن الحاجزون على الجانب الأيمن من القاعة الكبيرة لحظات. يلوحون بكؤوسهم ثم يجلسون وهم يرددون أوللي.. أوللي. ثم يرد عليهم الزبائن بالجانب الأيسر يقفون ملوحين أيضا بكؤوسهم نصف المليئة مرددين أوللي أوللي. لا تنتبه محجوبة لصوتها الذي يضيع وسط الضجيج. كانت تبدو سعيدة. أظهار بأنني لم أسمع ولم أر شيئا.

إنها حرب موسيقية وشعرية بين المتخاصمين المتقابلين المتناقضين في المظهر لكنهما يشتركان في التفاصيل من تاريخ واحد.. تاريخ بشري حزين. مليء بالانكسارات والانتصارات الوهمية لكليهما. من التنافر والتشاجر. الآن سيشرعان في حرب رمزية بالغناء والموسيقى وليس بالرمح. جمهور القاعة، التي خفضت إدارته إنارتها كالعادة كلما بدأت المناظرة، متأهب. كل من الزبائن الكثر يحمل كأسه في يده، بينما اهتمامه وجميع حواسه متجهة نحو المنصة.

- حي على العراك الموسيقي الذي سينطلق بعد قليل.

ما يحدث عادة أن يبدأ كل من الموسيقيين بوصلة موسيقية قصيرة. على الأول أن يفتح الحلبة بأغنية من الفلامنكو لـ «دون أنطونيو تشاكون» معشوق الجماهير، هذا المغني الأسطورة لم يفتربه في قلوب الناس هنا جيلا

بعد جيل حتى بعدما ودعوه بجنازة تليق بالملوك عند رحيله، بعد أن عبر الأرض محملا بالفلامنكو من 1869 حتى 1929. افتتاح المبارزة بمقطوعة له ستوقظ سطوة الموسيقى في قلوب الحاضرين ستنقلهم إلى عالم مواز. بعد انتهائه مباشرة ينطلق العازف الثاني. يحتضن عوده العربي ويؤدي مقطعا من التراث الأندلسي العريق، الذي كانت تصغي إليه وتطرب له أحجار المكان من قرون خلت. الحقيقة لا يخفى التشابه المخبأ بين ثنايا المقطوعتين. لا غرابة.. هؤلاء البشر ألم تنبتهما أرض مشتركة؟

عادة ما ستتوالى المقطوعات المتناظرة أكثر حدة وعنفا كلاميا جارحا. كل واحد من المتنافسين ينتقد ما قاله الثاني. يعارضه بشراسة بأبيات مغناة، ثم يرد عليه الآخر حتى تصل الضراوة متهاها. تتصاعد الضحكات والصرخات والتصفيقات والتهليل كلما انتهى أحدهم من الرد على الآخر. الحكم المختفي رفقة مستشاريه وسط الناس يقوم بتسجيل نقاط القوة ونقاط الضعف لكليهما.

على الردود أن تكون سريعة ومفحمة ومقنعة للجمهور حسب موهبة كل واحد منهما في سرعة البديهة والارتجال. وبعد ساعة ونصف من المبارزة الموسيقية والغنائية سيصفق الحضور عليهما معا إن أبدعا أما وإن أخفقا أو أخفق أحدهم

في إدهاشهم فسيستنكرون ذلك بهتافات وإشارات. في نهاية المباراة يأتي الدور الصعب للحكم الذي سيصعد إلى المنصة للإعلان عن المنتصر وسط الهتافات. وسيكون الأمر أكثر صعوبة إن لم يتفق معه الجمهور.. ووراء كل ذلك كله سيربح أو يخسر الأغنياء الحاضرون أموالا طائلة عن طيب خاطر في مراهناتهم على الرابع.

هذه المرة حلا لي أنا المرأة الآلية الوحيدة في السهرة أن ألعب قليلا مع البشر. أن أشوش على عادتكم. على حروبهم الرمزية. على انتصاراتهم الوهمية. أن أغير لهم أركان اللعبة وشروطها.. نعم.. إكراما لمحجوبة التي تجلس بقربي تشرب كؤوس البرتقال لتطفئ نارا داخلها لا تدري مصدرها. تشعر بالغرابة. تنظر بدهشة إلى ما يحدث حولها.

عاجلتُ إحدى الرقائق النادرة في دماغني. أرسلتُ أمواجها من بؤبؤي عينيّ نحو المنصة فلم يعد في مقدور المتنافسين أن يريا غيري. أمسيا في حالة انجذاب مغناطيسي. وقعا بلذة في هاوية سحر جمالي.

عيناه مصوبتان نحوي، عنقه الملفوف بمنديله الأحمر يلوح كوردة، كهدية حب. أصابعه تداعب أوتار غيتاره بينما تخرج من حنجرته القوية بحة وآهات عالية متقطعة:

..Mi amor mi amor)

..La vida es un carceeeeeel

con ...hoooo...hooooo

(puertas abiertaaaaas

(يا حبيبي يا حبيبي.. الحياة سجن.. بأبواب

مفتوحة...)

كررها مرات عديدة، بإيقاعات مختلفة وبصوته الصارخ الجريح. كان يوقظ أجداث الأجداد النائمين في عمق كل واحد من الحاضرين الذين استجابوا بقوة. وعندما انتهى كانت عيناه معلقة بي يبحث عن رد فعلي. لم أصفق. لم أهتف. ابتسمت. ابتسمت فقط. كان سعيدا بذلك. لم يفكر أنه بخجل مني. لم يابه بأحد من هؤلاء الذين كانوا ما يزالون يهتفون بنشوة استحسانا لأدائه ويلوحون له بمناديلهم. رفع الموسيقى الثاني أكاممه وعانق عوده دون أن ترف له عين ولم يشغله ما يدور حوله عن النظر إلي. إنه على عجلة من أمر أن يأتي دوره. عاد الصمت. ضم عوده بمنتهى الحنان فعزف وصلة موسيقية أندلسية بارعة ثم غاب في موال يتحرك له من مكانه الحجر:

يا تاركيبين وراءهم أشوااااقنا..

عووووووجوا على ربع المَحب وميلوووووا...!

وكما فعل زميله، كان يتفنن في أدائه الذي لم يترك
قلوب الحاضرين دون خفقات عيفة. ودون هتافات
استحسان.

يمرّ الوقت. حرارة بشرية عالية. هتافات. نداءات
استزادة. تصفيقات. نقر كؤوس وقُبَل محمومة. لم تحدث
المعركة الطاحنة المنتظرة. لم يحدث تناز. نسي الحضور شروط
لعبة الحرب في سطوة حضور الحب.

أوتار الغيتار تشتبك مع أوتار العود يعزفان ويغنيان معا
بصوتيهما القويين العجيبين القادرين على المستحيل. نظراتهما
تغمرنني مثل شلال ماء. كانا يعنياي:

Para no verte tanto

Para no verte siempre

En todos los segundos

En todas las visions

لكي لا أراك كثيرا

لكي لا أراك دائما

في كل الثواني

في كل الرؤى...!

ولأن في كل واحد من البشر الحاضرين عاشقا سعيدا أو
حزينا، متعبا أو في فترة هدوء مؤقت، فقد غمر القاعة شعور

عارم بالفرح فجأة. بعد أغنية لعشق الحرية، للغجري المتمرد
 كررو مالينا اختتم الموسيقيان معا المناظرة بوصلة أندلسية
 بإيقاع سريع وراقص:

قدوم الحبيب تمام السرور

وكاس المحبة علينا يدور

يا أهلا وسهلا بمن زارنا

أمير الملاح وتاج البدور.!!!

لم يبق في القاعة رجل أو امرأة من كل الأعمار من
 هؤلاء البشر دون حركة.. حتى خوان. حتى إدارة المقهى -
 بار إلرنكون دي بيبي، حتى السيد الحكم. لم يحدث أن
 غنى المتنافسان معا. إنها أول مرة. إنها ضد شروط اللعبة. إلا
 أن جميع الحاضرين كانوا في حالة تشبه الصوفية، يدورون
 ورؤوسهم مائلة وأذرعهم تعانق السماء. أسكرهم الإيقاع.
 لم يكونوا سكارى بما كانوا يشربون. بل أسكرهم هذا
 الشيء النائم في جوانية كل واحد منهم مثل جرح قديم بألم
 لذيذ. انتفض داخلهم قادما من ثلاثة عشر قرنا أو يزيد.
 تداخلت الأزمنة. ووقع ما لم يكن في الحساب.

في غفلة عن الجميع ما عدا عيون الموسيقيين التي تتبعني
 مثل أربعة أسهم لامعة، تركت بقشيشا لخوان على الطاولة
 تحت المنديل، كما تفعل عادة مانويلا دي مويلا حين تأتي رفقة

عشيقته الجميلة الشقراء آنخيلا. ثم أشرت لمحجوبة التي كانت غائبة في جذبته تدور في حضرة صوفية وتغني بصوتها الذي تحرر من الخوف والخرس. لم ترني. لم تمتثل لأمره. كانت تبتعد في دوراتها الصوفي وسط الجموع، تدافعت بقوة حتى وصلت إليها فجذبته من ذراعها. توجهت وأنا أدفعها بقوة نحو الباب الخارجي الكبير، الذي أخفى بعد انسداده وراءنا ضحيجا عارما خلفه. وبشرا يعيشون حالة نادرة دون طبول الحرب.

قضيٲنا أربع ساعات ونصف في الطريق من مرسية إلى

قرطبة.

- وصلنا إلى الأندلس يا محجوبة!! قلت لمحجوبة السٲي استيقظت لتوها وقد كانت تغط في نوم عميق.
- واشئو هو الأندلس؟ قالت وهي تفرك عينيها. ثم بسرعة وضعت يدها على فمها. لأول مرة أسمع صوت محجوبة يحدثني. لم أبد أي اغتراب لذلك. لا عين رأٲ ولا أذن سمعت.

لأول مرة في كينونتها كلها، تستيقظ محجوبة في قرطبة، بفندق من هذا الطراز وبخمس نجوم. في غرفتها رقم 27 بالطابق الأول من أوتيل إستراليا. من إقامتي في جناح في الطابق العلوي، أراقب من شرفاتي الأربع معالم المدينة الحضارية التي تزهو بعمرانها وهندستها الحديثة.. راقبت لي فكرة أن أعالج رقاقة استرجاع الزمن، لأشاهدها كما كان يحلو للبردادي أن يصفها لي بكثير من الحنين. وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن يعيدها لحكم المسلمين ويعيد فتحها سائرا إليها على طريق مرصوف بالجماجم.

وحدث شيء لا يتصور ولا يخطر على بال آدمي. انقلبت الشوارع أمامي إلى مساحات واسعة بجداول منبسطة على مد البصر الآدمي، وبقصور باذخة، وبيوت جميلة. تلوح من كل صوب أعالي مآذن مئات المساجد وتظهر الكنائس ومعابد لليهود وأسواق عامرة وحمامات. وخلف سور فاصل هناك تجمعات لبيوت بسيطة فقيرة. الناس ذاهبون وآيون. منهم الفقراء بأثواب رمادية وآخرون يرفلون بزهو في أزياء تطغى عليها الألوان الزاهية المتناسقة. يمشون الهويني ويشيرون

بأكامهم الحريية الواسعة بأناقة وهم يتحدثون.
 أثار اهمامي رجل متميز هناك، يحمل عوده بأناقة، بينما يتلاحق الناس للاقتراب منه والتزاحم حوله للسلام عليه. إنه موسيقي شهير يدعى زرياب. طالما حدثني عنه البردادي في جلساتنا الحميمة بكثير من الإعجاب والفخر. ترك مدينة بغداد، ليستقر بعد تونس في قرطبة سنة 822 ويؤسس مدرسة للموسيقى ويطوّر الغناء العربي الأندلسي، وابتدع موسيقى الموشحات والزجل التي تتمخض عن فن الفلامنكو. واخترع نظام النوبة في الموسيقى الأندلسية. أراه من شرفتي. رجل جذاب. أنيق جدا في هندامه وحركاته ومشيته ذات الإيقاع والجلال والأبهة. النظرات تتبعه من كل جهة وكأن حوله هالة، أو أن به مغناطيسا غريبا يشد شغاف قلب وانتباه كل من يراه أو يلمحه من بعيد..

- آه يا البردادي يا عاشق الحرب لو كنت معي الآن.
 لو كنت مخلوقا آليا مثلي لتفعل رقاقة طي الزمان
 لرأيت ما كنت تبحث عنه في كتبك القديمة رثة
 الأغلفة. تورق المخطوط بعدما تُبلل إهامك
 وسبابتك بلعابك. تطوي دفته لتفتش في آخر وآخر.
 تقرأ لي مقاطع عن أخبار العرب في الأندلس. وأنا
 أستمع إليك بشفقة امرأة آلية. حالتك المستعصية

جعلتني أشيخ سبعمائة عام. حتى خشيت أن يتصاعد دخان من رأسي فيفضحني ويشيع خبر حقيقتي الآلية. ترديدك للكلام أفقده قيمته. لبتك كما تملك تلك الأسلحة المتطورة للحرب وأدوات القتل والتجسس وأدوات حياة عصرك الذي تعيشه، تملك فقط رقاقة إلكترونية في رأسك ذاك لتسكتك. لترى بأمر عينيك الحقيقة التي تناقلوها من قبلك حتى وصلت إليك من مفاصل ثلاثة عشر قرناً.

تعال وانظر. ستتخطى هراءك البشري على أنك إله صغير تدافع عن إله كبير. وتروي عطشك المزمّن للدم الكامن في خلاياك. ثم تكابر حين تنغمس مثل طفل في سماع أغنية حب بصوت ناظم الغزالي مطربك المفضل. تهددك وتبكيك.

- أوف... يالك.. تبا لك ولفصيلتك من البشر المتألهين.

وسط الجموع أشاهده يمرّ.. لا يخفى ظله على نبيه. إنه ابن قرطبة موسى بن ميمون، يسير ببطء. لا بد أنه يفكر في أمر يشغله في الفلسفة أو الطب. أتذكر الآن حفيدته حدة آل ميمون. لبت رأسها المقطوع في برداد يحضر الآن لتراه. لترى من باعت كل أملاكها وغامرت بجياها البشرية المؤقتة،

لكي تسترجع خطواته تلك على أرض قرطبة. كم كانت فحورة به وتصفه دوما بالمتدين العاقل.

- آه يا حدة إنه مجرد وهم بشري.. فما الذي دهاك؟.

البشر يتعلقون بأوهامهم.. يتشبثون بها. ولأن للأوهام البشرية أجنحة قوية، فإنها تطير بهم إلى أعلى.. أعلى فأعلى.. ثم ترمي بهم نحو الأرض. نحو الواقع.. فيتهمشمون.. آسفة من أجلك حقا يا حدة. كان حلمك هو نفسه حلم البردادي ولكن السكين الذي جزّ رأسك هو سكينه.. لا يشفع الحلم المشترك بين البشر حين تختلف أديانهم..

انتباهي لرنين الهاتف الأسود على المنضدة قرب السرير يشوش على عمل الرقيقة الإلكترونية لاسترجاع الزمن. تختفي حركة حياة العصر الأندلسي العتيق، وتعود كل البنايات الحديثة، ومظاهر الحياة المعاصرة، تتمطى خلف زجاج شرفات الجناح الأربع، وحدها تظل زرقة الوادي الكبير تحدث زرقة السماء. تسردان تاريخ البشر الدموي الذين مروا بينهما.

بعد عودتنا، وبينما محجوبة تجرب بسعادة قصوى الألبسة الجديدة الجميلة التي اشتريتها لها من قرطبة، كانت مادام (نيكول) التي جاءت لزيارتي برفقة ابنها الكاتب المشهور (هيغو) تبدو قلقة. أخبرتني وعلامات الفزع على وجهها بأنها لمحت من بعيد حركة غير عادية وأضواء شاحنات ليلة البارحة حول المزرعة. ولولا معارضة ابنها لكانت أخبرت الشرطة بما يحدث في مزرعة صديقتها حدة..

- ثم ماذا أقول لحدة حين تعود؟

هي لا تعرف أن حدة تنام بلا رأس في قعر حفرة بالشرق الأوسط..

أخبرتني أنها عندما نادى ابنها لتشعره وتخبره بما يحدث في المزرعة، وكان كالعادة غارقا في عوالم روايته السريالية الجديدة. نصحتها أن تعود إلى نومها وأن ما تراه ما هو سوى هيمؤات خيالية، عادة ما تحدث من فرط الشيخوخة وأمراضها.

هززت رأسي موافقة على كلامه. ما كان علي إلا أن أستعمل طاقتي الآلية لأخو من ذاكرتها الأربع والعشرين ساعة الماضية. غيرت مجرى الحديث:

- عن أي شيء تكتب الآن يا سيد هوغو ما هو
موضوع روايتك الجديدة؟

- أكتب عن العشق كالعادة. إنها قصة حب جميلة..

- جميل يا هيغو.. «الحب نافع للصحة» كما يقول
الفيلسوف العقلاني ديكارت في مقالته السابعة
والتسعين من كتابه حول انفعالات النفس!

ابتسم ببلاهة.. ثم صمت.. لكنني ولكي أشجعه على
الكلام، أبدت اهتماما وتظاهرت بالإصغاء له، لكي يختصر
في حديثه الطويل، الطويل جدا، ما كتبه لحد الآن من روايته
التي ستنشر قريبا في خمسمائة صفحة وعلى غلافها صورته
كبيرة.

هيوغو يحفظ مقاطع طويلة من روايته. يتلوها وهو يحرك
ذراعيه العاريتين حتى المرفقين. يصرّ أن يشمر عليهما دائما،
وكأنه طبيب توليد أو على أهبة أن يحشرهما في حوض أسماك.
يسرده مقاطع تصف بلغة رومانسية بالغة الرقة، مواعيد
الحبيبين قرب النهر، والسماء الشاهدة على العناق والقبل،
وأم الفراق والهجر والعشق المؤلم، والعصافير والسواقي
الرقراقة والقبلات المحمومة والسحب العابرة للقفارات حاملة
رسائل الشوق... ثم يضيف بابتسامة فخر بأن صديقة العائلة
الدكتورة «ماري كومان» الناقدة الشهيرة بعلاقتها المتشعبة

والناجحة والمثمرة، ستقوم بالدعاية لها وستكتب عنها في ملحق الموندو بإسبانيا ولوموند بفرنسا. وان القراء سيقبلون عليها في طوابير طويلة لا محالة.

تحدثنا طويلا عن الحب وقصصه وأوجاعه وأحلامه وأوهامه.. لم يعد أحد يذكر قصة الشاحنتين. إنها فقط من أعراض الشيخوخة وأمراضها.. فليحيا الحب يا سيد ديكارت إنه حقا نافع للصحة.

شجرة الأرحام

سنة أيام مرت. بل ست ليال بالحساب البشري. في الليلة السابعة وتحت جناح الظلام قفز عمار الباتر إلى الداخل. كان وجهه مقفلا متجهما جادا.

- علينا أن نذهب. قال وهو يشبك يديه خلف ظهره. تصنعت استغرابا يصدر عن عقل بشري:

- كيف..؟ لماذا..؟ أين..؟ متى..؟

كنت أعلم أن الأمور العملية قد بدأت. وأن حربا بمواصفات لم تعرفها البشرية من قبل على الأبواب. وأن البشرية من جديد في مواجهة الحرب والجوع والمرض والشتات والتمزق والموت الجماعي. وأن عمار الباتر قد قطع رأس البردادي بعد تردد، إلا أنه لم يتخل قيد أنملة عن الوعد في بسط دولته الإيمانية على العالم. تبنى استراتيجيته الحربية الفريدة التي لم يسبقه إليها شياطين الحرب عبر التاريخ. فبينما زعماء الدول العظمى مشغولون بالخراب الذي أحدثوه في المشرق فلم يصدق عليهم البترول الأسود كما كانوا ينتظرون بل حول واقعهم ليوم أسود. منشغلون بخلافاتهم حول زعامة العالم فإن أتباع الدولة الإيمانية يتحركون مثل الكثبان عبر

العالم يتزايدون بالملايين في الغرب والقارات الأخرى. فقد إمارته في المشرق فاستعادها بقوة في الغرب بسرية تامة. لم تفتقر رغبته أبدا. بحنكة نادرة، الملايين من الأتباع يهيؤون المناخ الجديد. الآلاف يندمجون في العمل الإداري والسياسي. ينتخبون، يندسون في دواليب الدول الغربية الديمقراطية، بينما آخرون كثير يديرون مئات الآلاف من البيوت ومن المساجد المزروعة تحت الأرض. الأحياء الصعبة حيث يتمركز المهاجرون، تؤم وتجنّد الملايين تزودهم بالمال وبالأسلحة المتطورة. ملايين من الأتباع الجدد، من العرب ومن سائر القوميات الصغيرة ومن الوافدين عبر البحر والبر إلى أوروبا. إنهم جاهزون تماما. لا ينتظرون منه سوى إشارة لبدء الحرب واكتساح المدن الكافرة.

- وصل البردادي إلى بواتي مر بالجزائر ليأخذ ابنه (..مختار...). وأمر أن يراك!. قال عمار الباتر بصوت مبحوح. إنه لا يعرف انني أعلم أنه يكذب. وأنني أرى في بؤبؤي عينيه رأس البردادي ورأس ابنه تتدحرجان عند قدميه.

وكما يفعل البشر. تظاهرت بتصديق الخبر. ثم طلبت منه أن يجلس لشرب الشاي حالما أعود، ففعل.

تركته جالسا عينا منفرزتان في ضوء هاتفه. خرجت وفي يدي مصباح صغير للتمويه. إنه لا يلزمني أبدا. أطفأته ووضعتة في جيب قميصي حالما ابتعدت عن البيت حيث تأكدت من أن عمار الباتر لا يمكنه أن يراني. أنا مخلوق آلي لا أحتاج إلى النور الصناعي. إنه بداخلي، أستطيع أن أرى بوضوح النهار ما يخفيه ظلام الليل عن أبصار البشر المحدودة. في طريقي تلمع فقاعة ضوئية هناك.. هذا هناك يساوي سبعا وأربعين سنة، يراها العلماء من البشر بواسطة الآتهم المتطورة ويطلقون عليها اسم «نجم». توجهت نحو الحديقة مهدوء. وقفت قبالة شجرة التوت التي نبتت حيث دفنت الرحم الحي. تمايلت أغصانها المحملة بالثمار وكأها حبات من اللؤلؤ. نطقتُ حالما لمست جدعها.

- أتريدين استرجاع رحمك.. إنه حي في كل واحدة من ثماري هذه؟؟

لم أرد عليها.. كنت أنظر إليها. إلى جمالها الأخاذ.

- أحذرك مانويلا.. فأنت تعلمين إن أنت أكلت واحدة منها ستسرجعين رحمك فورا، ستشعرين به

يتكور في أحشائك، يملأ مكانه الفارغ منك، ويمكن
إثر ذلك فقدان شيء من طبيعتك كامرأة آليّة.
ستقعين في الحب كالبشر وستكرهين وتنتقمين
وتظلمين وتتألّمين مثلهم. ستختلطين بالتراب.

لم أردّ. تشاغلت بمراقبة النجم ذاته ذاك الذي يبعد أثره
بسبع وأربعين سنة ضوئية.. والذي لا يراه البشر سوى
بتلسكوب شديد التعقيد بينما أنا المخلوق الآلي أراه واضحا
أمامي.

- تبدين مترددة.. أنت على حق يجب التفكير مليا
يا مانويلا. أنت تعلمين أنك لن تستطيعي نزعه آليا
كما فعلت في المرة الأولى.. لقد أضحي من تراب..
أضحي رحما نصفه آدمي يا مانويلا.

داعبت الأغصان اللامعة بيدي كانت حبات اللؤلؤ المنيرة
ناعمة الملمس، تدغدغ باطن كفي.. تريثت قليلا ثم قطفت
واحدة منها، تأملتها قبل أن أضعها في فمي كان مذاقها مرّا
في حلقي.. اهتزت شجرة التوت ومالت بقوة وما من ريح
عاتية في الجوّ. تساقطت حبات التوت حتى لم تبق واحدة
منها ملتصقة بغصنها.. أمسست الأرض حمراء.. خرج نمل أحمر
كبير الحجم. حملت كل واحدة حبة منها واختفت تحت
الأرض.. إنها تخبئ الأرحام المخصبة في مكان آمن تحت

الأرض. لن تستقر في مكان واحد. ستتحرك تحت قشرة
 التراب لتنتقل في جميع أركان الكوكب. ستشطر الخلية
 بسرعة الضوء إلى ملايين منها. وحين ستنضج وتكتمل أجنحتها
 ستخرج منها ملايين المخلوقات. ليست مخلوقات آلية مثلي
 تماماً، وليست مخلوقات بشرية مثل البراداي. بل مخلوقات
 أخرى لم ترها الأرض من قبل. نصفها آلي ونصفها بشري.
 في طريق العودة إلى البيت لم يعد النجم يظهر لي وكان
 الظلام دامسا. تذكرت المصباح الذي في جيب ثوبي.

الرحيل

لا يمكن لأي سائق بشري مهما أوتي من قوة أعصاب، أن يقطع ما يقارب أربع عشرة ساعة من المرية حتى مدينة بواتي، لكن عمار الباتر الذي لم ينبس ببنت شفة مدة أزيد من أربع ساعات وإحدى وعشرين دقيقة، كان من حين لآخر ينظر إلي وأنا مستلقية في المقاعد الخلفية الثلاثة. رأسي مستندا على ركبتني محجوبة. فتبرق عيناه بشبه ابتسامة رضا ثم يعود حاجباه يرسمان علامة القلق الشديد. عند وصولنا إلى مشارف مدينة بلنسية نطق أخيرا:

- وصلنا.. أترين؟ هناك مدينة بلنسية.. الخليفة البردادي يقول إنها سقطت عامين بعد سقوط قرطبة. سنستعيدها بحول الله!

مررنا بطريق جانبي مقفر لم تواجهنا أية سيارة. محجوبة بقربي تشعر بالأمان التام. لأنني علمت أنها تفضل الرحيل برفقتي على أن تظل عند السيدة بوكاج وابنها وعلى أن تعود إلى بيت أبيها وزوجته.. حين أخبرتها أنني قررت أن ترافقني، فرحت بعمق. عانقتني وبكت من الفرح. بحذر يتلفت عمار خلفه مرارا. وصلنا إلى مساحة واسعة منبسطة.

كانت طائرة صغيرة في انتظارنا.

حلقت بنا حتى سماء بواتيبي.. يعود إليّ وجه السيدة
نيكول بوكاج وصوتها المرتجف حبا لمدينتها بواتيبي مدافعة
ومرافعة عنها.

من أعلى. أشاهد نقاطا براقا تحت التراب. إنها الأرحام
المخصبة من شجرة التوت بألمرية، تسبق الزمن البشري. إنها
على أهبة الطلق. طاقة سلبية تجتاح الحقل المغناطيسي. شيء
ما جلل يتهيا حدوثة.

- أوصيت أن تبقى محجوبة في غرفة قريبة مني.
- ماناول الله.. ماناول الله.. ماناول الله!! حالما دخلت الغرفة المخصصة لي حتى أغلق الباب خلفنا بسرعة. عانقني بجمرة كما يفعل طفل لأمه التي غابت عنه طويلا.
 - البردادي أم عمار الباتر؟
 - سأقص عليك الحلم العجيب الذي رأيته من ليلتين.. ثم يقول إن ملاكا آخر يشبهني وقف عليه في المنام. سأله عني. وأمره ألا يعلن عن بداية الحرب الكونية الإيمانية في غيابي.
 - كثر نزول الملائكة عليك يا زعيم المؤمنين.
 - هذه من نعم ربي سبحانه وتعالى.
 - المهم أن يتأخر عزرائيل قليلا.. قلت مداعبة.. لم يتتسم. بل ارتجف قلبه ثم أضاف بصوت متضرع:
 - أطلب منك أن تخبريني عن زمن ومكان وطريقة موتي.
 - أمهلني يوما واحدا كي أستشير أهل السماء. أجبته بكل جدية.

يعود إلى عناقه المحموم.

من أين تأتيه كل هذه الرقة.. وهو الذي لم تعرف حياته سوى الحرب والقتل والسبي والتشريد والهدم والحرق والتعذيب وقطع الرؤوس دون ترد، والإفناء؟ من أين؟.. البشر مثل النجوم لهم جانب مضاء والآخر مظلم. أنا الجانب المضيء لهذا المخلوق البشري الذي في صراع مع نفسه ومع الآخرين.

لم يبق مكان من جسدي لم يقبله مرتجفا بشغف العاشق وجنونه وعطشه.

يملاً كفيه بوجهي وكأنه يخشى على حفنة ماء بينهما أن تهرق. يقبل شفتي بشراهة وعطش. كان يحاول أن يرتوي دون لأي. جرب العناق والتقبيل والالتحام الجنسي والتمرغ فوق الجسد لكنه بقي على عطشه.

- أنا أعرف لماذا لا أشبع منك.. لأنك حور العين.

أنزلك الله معجزة لنا. والحوريات لا يشبع منهن.

لم يكن من المجدي أن أقول له الحقيقة. إنه لا يدري أننا من طبيعتين مختلفتين. لا مقارنة القوة بينهما. لن يستطيع الارتواء من جسد آلي متقن الصنع طاقته ولغته الجسدية فوق طاقة ولغة البشري، الذي لا يملك من قدرة التواصل سوى خمس وخمسين في المائة من لغة الجسد، وثمان وأربعين بالمائة

من الصوت، وسبع في المائة من الكلام.. شيء ضئيل جدا. سيظل البردادي- الباتر دون ارتواء لأنه يحتضن جسدا لم يكتمل في مدة أقصاها تسعة أشهر. بل صنع هكذا، بلا حدود لجاذبيته ولطاقاته، صنع دون تاريخ انتهاء صلاحياته. أشفقت عليه حين أصابه الإجهاد ولسانه يلهج باسمي. نام وهو يردد:

- باركينا يا معجزة الله وقولي لله أن ينصرنا.. فمع الفجر يبدأ يوم إعلان الجهاد في الكون كله. نام متعبا جدا.. لم يبق على صلاة الفجر سوى ساعات.

الملاك الخائن أم المخلص..؟

كان الليل في أوجه. فتحتُ كوة صغيرة منه على يوم الغد. أطلُّ منها على الساعات القادمة من يوم الناس ذلك. يوم بشري آخر على هذا الكوكب غير المحظوظ. يوم آخر لم يصنعه وينستون تشرشل، ولا المارشال بيتان، ولا أدولف هتلر، ولا غيرهم من صناع الحروب التقليدية القديمة وقائدو الجيوش الجرارة، ومجانين السلطة والموت. من هذه الكوة التي فتحها أمامي عقلي البديع. أرى خطأ فادحا سيقوم به البردادي-الباتر. خطأ سيكلف البشرية حيوات خمسة ملايين من البشر. لا شيء غير القتل بكل أشكاله. من هذه الكوة نفسها أرى خطأ من نوع آخر. إنه خطأ تكنولوجي تسببت فيه العاملة «اسيان» بدسها الرحم في جسدي. أرى ملايين الأرحام المنحصة تخرج من تحت التراب. تستوي كمخلوقاتٍ نصفها شبه البردادي تماما ونصفها آلي. تتكاثر بسرعة عجيبة تجتاح الكوكب في زمن ضئيل. تأكل كل ما تصادفه في طريقها من بشر وحجر وشجر وكل مخلوق حي. منظر مهول أراه قبل ساعات من وقوعه.

البردادي-الباتر يغط في نومه.. سيستفيق وينهض ليعلن مع الفجر، من الجامع الكبير لمدينة بواتيني بداية هذا الخراب.

كنت أفكر في محجوبة. إن لم يقتلها بشر عادي مثلها، فسببتلها هؤلاء الوحوش الخارجون من الأرحام المخصصة. ستنتهي بمأساوية كما عاشت بمأساوية كملايير البشر مثلها.. كان علي أن أتصرف وبسرعة. أن أراجع أكثر الرقاقات سرية، المزروعة في أعماقي علني أجد مخرجا لهذا الأمر الطارئ.

- - هكذا إذن.. لا خيار لي سوى تنفيذ المراحل جميعها كما جاءت في الرقاقة الألكترونية.

بدأت بإبراق ملايين الرسائل المقتضبة إلى مراكز البحوث التكنولوجية المتطورة، لإعلامهم وتحذيرهم ليأخوا احتياطاتهم فقط. أعرف أن ليس بمقدورهم وقف الدمار القادم. ولكنهم يستطيعون أن يساعدوا دولهم لمعرفة خارطة البؤر الخطيرة التي بعثت لهم بها للوصول إليها وتطويرها بسرعة.

لكن المرحلة الأخيرة فاجأتني بشيء رهيب. بكل واحد وحيد لا خيار غيره للقضاء على الأرحام المخصصة. حل لم أكن أنتظره. إن تلك الملايير من الأرحام المخصصة التي ستنتقل فيها الحياة بعد وقت قصير، مرتبطة بالرحم المركزي الذي يوجد في جسدي. حياتها مرتبطة بحياتي وموتها مرتبط بتدمير الذاتي. التدمير الذاتي يتم بتدوير لولب صغير جدا تحت جلد رأسي أعلى الرقبة.

جلست أفكر للحظات فقط. لا وقت لدي.. كان البردادي- الباتر قد استدار على جنبه الأيمن وغط في النوم من جديد.

لم يبق على استيقاظه وقت طويل ليعلن بداية الدمار الشامل، ولم يبق على طلق الأرحام المخصبة سوى ستين دقيقة.

ثم قررت نهائيا:

اقتربت من البردادي- الباتر. كان نائما بعمق. مددت أصابعي وضعتها على صدره مكان القلب منه. كانت الطاقة المرسلة إليه فوق تحمله فتوقفت نبضاته للتو. تأوه قليلا ثم ارتنخى نهائيا.

فتحت الباب ثم ولجْتُ غرفةً محجوبة. ملاحظها المظلة من النوم تبدو هادئة. حالما رأيتني عانقتني بحرارة مثل طفلة عثرت على أمها بعد زلزال مهول. أصبحت شديدة التعلق بي. أصبحت كل شيء بالنسبة لها. عائلتها وعالمها ومستقبلها وحاضرها. عانقتها وقبلت جبينها ومسحتُ على رأسها ثم ناولتها بطاقتي البنكية وأوصيتها خيرا بنفسها. كانت تنظر إلي باستغراب ثم بخوف. ودون أن أخبرها عن السبب، طلبت منها بعد أن رفعتُ خصلات شعري إلى الأعلى أن تدبر بأصابعها اللولب الصغير الذي يستقر بين أسفل الرأس وأعلى

الرقبة. بكل حب مدت أصابعها مرتجفة ممتلئة لأمرى. أدراته بأصابعها فانطلق دخان أبيض من رأسى وانحدرت دمعتان من عيني، ثم شعرت بالتلاشي. وقبل أن أغرق في العدم، تناهى إلى مسمعي بكاء محجوبة المخنوق الوجيع، وضحكات أطفال في الحدائق العامة، وطيور الحمام ترتب أعشاشها فوق أعالي المساجد والكنائس. ومدن بعيدة، يوقظ الصباح سفنها الراسيات. لكن ذئبا هناك. في الضفة الأخرى من النهار. يعوي في ظلمة البراري. عواؤه يحرك قشرة الأرض من جديد.

ربيعة جلطي

الجزائر - بواتي - ألمرية. 2019

قلب الملاك الآلي

ربيعة جلطي

• روائية وشاعرة.

• من مؤلفاتها:

..و حديث في السر

من التي في المرأة؟!

حجر حائر

الذروة

• صدر لها عن الدار:



لا يرفض أبداً أي طلب لها، ولا يناقشها في أي اقتراح. كيف للعاشق أن يناقش معشوقته في ما تهوى؟ حتى لو كان هذا العاشق هونفسه ذلك الذي لا يهاب شيئاً، ولا تؤذيه رؤية الرؤوس المقطوعة، بل لا تحرك فيه شيئاً سوى إحساس غريب بحرارة لذيدة تجتاح جسده. يفسره بأنه وقع عين الله عليه ولمسة يده التي هي علامة على رضاه وهو يراه يستमित في إفناء أعدائه وأعداء الله من الكفار والمشركين. يقف منتصباً، ينظر ببرودة إلى كومة تلك الرؤوس المقطوعة وقد وضعت أمامه على الأرض كما اتفق. وقد استقرت كل واحدة منها مقلوبة أو مائلة على جهة ما فيها. يقترب. يقرص قريبا منها. يحدق في عيونها المطفئة، وملامحها الغريبة، الملطخة بسواد سائلها وقد مرغت في التراب. يطيل النظر إليها بلذة قصوى. ثم كالعادة يصرّ أن يصلي عليها وحده «صلاة جهنم» كما يسميها. كل مرة يقف ليكبر أمام كومة منها، سواء تلك التي يقطعها بيده، أو التي يأتي بها رجال من جنوده من مناطق المواجهات الساخنة، مكدسة في عربة مكشوفة السقف تطوي عجلاتها منعرجات الطريق المخربة المحفرة، تتقاذف الواحدة فوق الأخرى دون أجسادها التي ألقى بها في أماكن بعيدة. ولأنهم يعرفون أن ذلك يسره ويشعره بأنه على أهبة الانتصار والمرور إلى مرحلة متقدمة من حربه الدائمة، فإنهم حال وصولهم، يفرغون العربة منها، ثم يكسدونها قرب خيمته الزرقاء البانخة، سيكون له وحده الشرف بإرسال أرواحها إلى جهنم عبر صلاته التي ابتدعها وسماها «صلاة جهنم».

